كتب الفراشة - القصص العالميّة

بَعيداً عَن صَخَبِ النّاس

ARAB COMICS
عرب كوميكس
www.arabcomics.net

كتب الفراشة - القصص العالميّة

بَعيدًا عَن صَخَبِ النّاس

تأليف : توماس هاردي

ترجمة : هاني تابري

مَكتَبة لبنان ناشِرون

مكتبة لبنان ناشرون ش.م.ل.
زقاق البلاط - ص.ب: ١١-٩٢٣٢
بيروت - لبنان
وكلاء وموزعون في جميع أنحاء العالم

© الحقوق الكاملة محفوظة
لمكتبة لبنان ناشرون ش.م.ل.

الطبعة الأولى ١٩٩٥
رقم الكتاب 01 C 196814

طبع في لبنان

مقدّمة

إِسْتَوْحَى توماس هارْدي عُنْوانَ رِوايَتِهِ هٰذِهِ مِنْ قَصيدَةٍ لِتوماس غراي، تُصَوِّرُ ما تَتَمَيَّزُ بِهِ الحَياةُ الرّيفِيَّةُ مِن ثَباتٍ واسْتِقْرار.

وُلِدَ هارْدي وتَرَعْرَعَ في مِنْطَقَةٍ ريفِيَّةٍ في جَنوبِيّ - غَرْبِيّ إنكلترا أَطْلَقَ عَلَيْها اسْمَ «وِسِكْس». وكانَتْ تِلْكَ المِنْطَقَةُ الخَلْفِيَّةَ لِمَسْرَحِ أَحْداثِ رِواياتِهِ وقِصَصِهِ. ويَظْهَرُ فَهْمُ هارْدي لِلطَّبيعَةِ ولِلبيئَةِ الرّيفِيَّةِ واضِحًا في «بَعيدًا عَنْ صَخَبِ النّاسِ»، حَيْثُ نَرى تَمْجيدًا لِلتَّقاليدِ الرّاسِخَةِ الّتي لَمْ تَتَبَدَّلْ ولَمْ تَتَغَيَّرْ تَمامًا كَأَرْضِ تِلْكَ المِنْطَقَةِ. ومَعَ ذٰلِكَ فَإِنَّ الرِّوايَةَ لا تَغُضُّ النَّظَرَ عَنِ التَّغْييرِ فَتَشْمُلُ الأَحْداثَ الطّارِئَةَ الّتي تُؤَثِّرُ على مَجْرى حَياةِ بَعْضِ الأَفْرادِ فَيَأْخُذونَ في التَّخَبُّطِ بَحْثًا عَنِ السَّعادَةِ المَنْشودَةِ.

نَتَعَرَّفُ أَوَّلًا إلى غبريال أوك، وهُوَ راعٍ شابٌّ، نَزيهٌ في تَعامُلِهِ مَعَ النّاسِ وجَديرٌ بِالثِّقَةِ وبِتَحَمُّلِ المَسْؤولِيّاتِ. واجَهَ غبريال شَتّى أَنْواعِ المَصاعِبِ والعَقَباتِ، ومَعَ ذٰلِكَ ظَلَّ صامِدًا يُجاهِدُ بِصَبْرٍ وجَلَدٍ حَتّى النِّهايَةِ. وقَدْ وَقَعَ في حُبِّ شيبا إفْرْدين الفَتاةِ الجَميلَةِ الغَنِيَّةِ. أُعْجِبَتْ شيبا بِحُسْنِ نَوايا غبريال، ولٰكِنَّها لَمْ تُحِبَّهُ، فَرَفَضَتِ الزَّواجَ بِهِ. ويَبْدو أَنَّ شَخْصِيَّةَ شيبا غامِضَةٌ صَعْبَةُ الفَهْمِ. وتُرافِقُ الرِّوايَةُ هٰذِهِ الشَّخْصِيَّةَ في تَقَلُّباتِها وتَطَوُّرِها مِنْ فَتاةٍ مَغْرورَةٍ مُتَهَوِّرَةٍ إلى امْرَأَةٍ ناضِجَةٍ رَزينَةٍ. وقَدِ ارْتَكَبَتْ شيبا غَلْطَةً كُبْرى حينَ انْقادَتْ لِغُرورِها وحُبِّها لِلإِطْراءِ فَتَسَرَّعَتْ في قَبولِ الرَّقيبِ تروْي زَوْجًا لها، وهو زيرُ نِساءٍ مُحْتالٌ، كانَ قَدْ هَجَرَ الفَتاةَ المِسْكينَةَ فاني روبِن الّتي ماتَتْ فيما بَعْدُ وهِيَ تَلِدُ طِفْلَهُما.

كَما إِنَّ شيبا لَمْ تُحاوِلْ أَنْ تَضَعَ حَدًّا لِتَقَرُّبِ السَّيِّدِ بولْدوود إِلَيْها. وكانَ هٰذا الرَّجُلُ

يُحِبُّها بِإِخْلاصٍ وطَلَبَ يَدَها قَبْلَ ظُهورِ تِرُوْي في حَياتِها. وقَدْ قادَتِ الظُّروفُ المَأْساوِيَّةُ السَّيِّدَ بولْدُوُود إلى قَتْلِ تِرُوْي في النِّهايَةِ.

أَمّا غبريال فَقَدْ بَرْهَنَ عَلى حُبٍّ ثابِتٍ لِشِيبا وإِخْلاصٍ دائِمٍ لَها بِالرَّغْمِ مِنْ كُلِّ ما حَدَثَ. ولِهٰذا تُوافِقُ شِيبا عَلى الزَّواجِ بِهِ في نِهايَةِ الأَمْرِ.

تُعْتَبَرُ هٰذِهِ الرِّوايَةُ إِحْدى أَرْوَعِ رِواياتِ هارْدي وأَكْثَرِها رَواجًا لإِحْكامِ سَبْكِها وتَصْويرِها شَخْصِيّاتٍ حَيَّةً نابِضَةً. وهِيَ، بِالإِضافَةِ إلى ذٰلِكَ، ذاتُ سِمَةٍ واقِعِيَّةٍ إِذْ تُصَوِّرُ حَياةَ مُجْتَمَعِ الرِّيفِ الإِنكليزِيِّ في القَرْنِ التّاسِعَ عَشَرَ، هٰذا المُجْتَمَعِ الّذي تَرَسَّخَتْ تَقاليدُهُ جيلًا بَعْدَ جيلٍ حَتّى وَصَلَ إلى تِلْكَ الفَتْرَةِ فَواجَهَ صُعوباتٍ في تَقَبُّلِ التَّغْييرِ الوافِدِ مَعَ الثَّوْرَةِ الصِّناعِيَّةِ.

بَعيدًا عَنْ صَخَبِ النّاسِ

الفَتاة الحَسْناء

في صَباحِ يَوْمِ أَحَدٍ مُشْمِسٍ مِنْ شَهْرِ كانونَ الأوَّلِ (ديسمبر)، كانَ غبريال أُوك في أَحَدِ الحُقولِ المُحاذِيَةِ لِلطَّريقِ المُنْحَدِرَةِ مِنْ تَلَّةِ نورْكومْب. وغبريال هٰذا مُزارِعٌ شابٌ لا يَزالُ عَزَبًا.

وَصَلَتْ إلى بَوّابَةِ رَسْمِ المُرورِ عَرَبَةٌ كُدِّسَ عَلَيْها أَثاثٌ مَنْزِلِيٌّ تَرَبَّعَتْ فَوْقَهُ فَتاةٌ فاتِنَةٌ، وكَذٰلِكَ وَصَلَ غبريال. سَمِعَ غبريال نِقاشًا يَجْري حَوْلَ الرَّسْمِ المُتَوَجِّبِ دَفْعُهُ، فَأَعْطى حارِسَ البَوّابَةِ قِطْعَةً نَقْدِيَّةً وطَلَبَ مِنْهُ السَّماحَ لِلعَرَبَةِ بِالمُرورِ. نَظَرَتِ الفَتاةُ إلى غبريال نَظْرَةً خاطِفَةً، ثُمَّ أَمَرَتِ الحوذِيَّ بِاسْتِئْنافِ السَّيْرِ.

تابَعَ الحارِسُ العَرَبَةَ بِنَظَرِهِ وهُوَ يَقولُ: «إِنَّها فَتاةٌ رائِعَةُ الجَمالِ!» فَعَلَّقَ غبريال قائِلًا: «أَجَلْ، ولٰكِنَّها مَغْرورَةٌ».

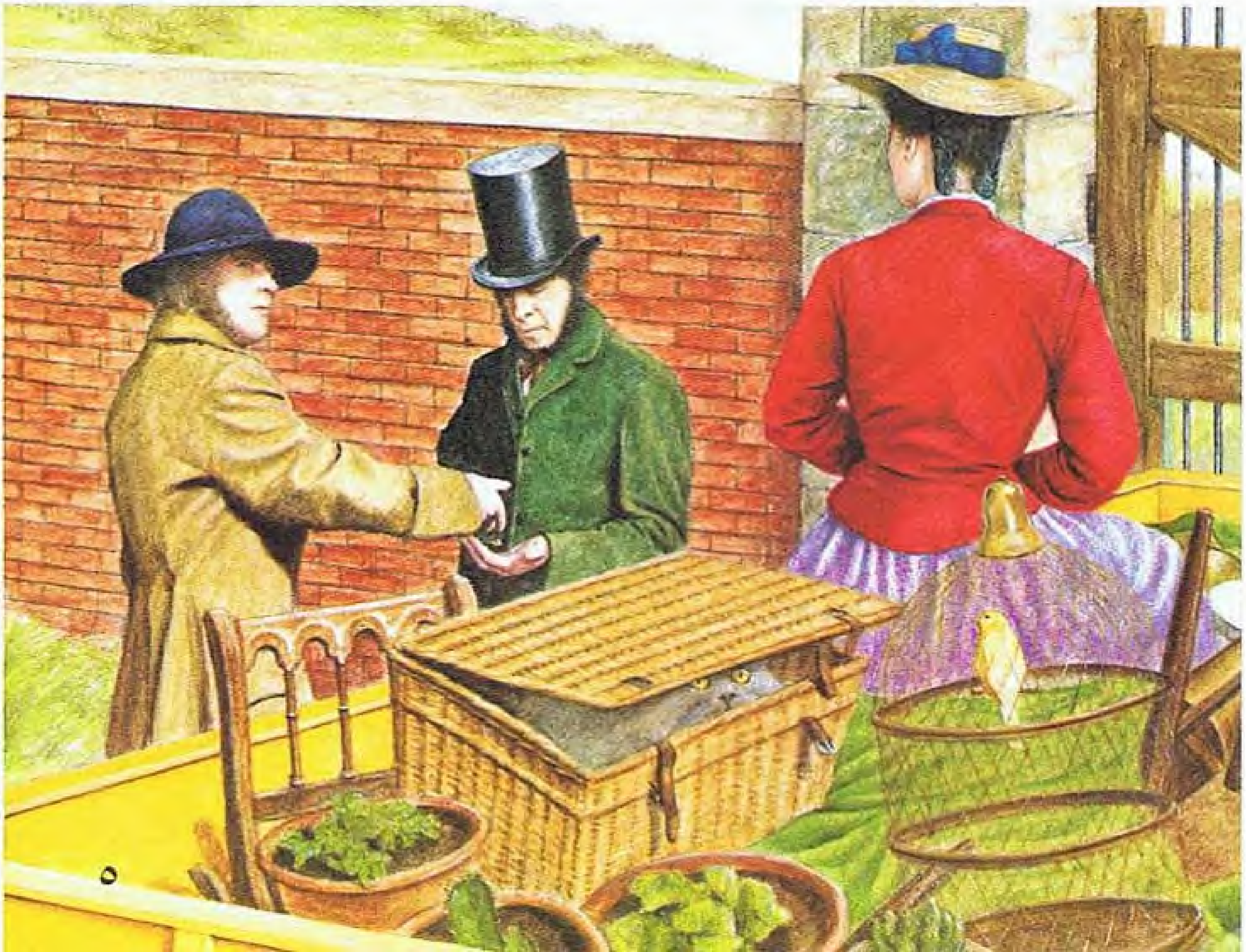

لَيْلَة صَعْبَة في نورْكومْب

عِنْدَما انْتَصَفَ اللَّيْلُ، هَبَّتْ رِيحٌ شَماليَّةٌ بارِدَةٌ حامِلَةً مَعَها الغُيومَ، مِمّا جَعَلَ السَّماءَ، في مُحيطِ تَلَّةِ نورْكومْب، صافِيَةً، فَبَرَزَتِ النُّجومُ واضِحَةً مُتَلَأْلِئَةً.

كانَ غبريال أُوك يَقْضي مِثْلَ تِلْكَ اللَّيالي الطَّويلَةِ، في هٰذا الوَقْتِ مِنَ السَّنَةِ، في كوخِهِ المُتَواضِعِ لِيَكونَ قُرْبَ قَطيعِ خِرافِهِ، وبِخاصَّةٍ لَدى وِلادَةِ الحُمْلانِ الجَديدَةِ. كانَ، بَيْنَ الحينِ والحينِ، يَأْخُذُ مِصْباحَهُ بِيَدِهِ، ويَدورُ على حَظائِرِ الخِرافِ. وقَدْ يَحْمِلُ مَعَهُ بِضْعَةَ حُمْلانٍ صَغيرَةٍ يَدْخُلُ بِها إلى كوخِهِ، فَيُوَفِّرُ لَها الدِّفْءَ ويَسْقيها شَيْئًا مِنَ الحَليبِ قَبْلَ أَنْ يُعيدَها إلى قُرْبِ أُمّاتِها.

كانَتْ تَرْبِيَةُ الخِرافِ مَوْرِدَ رِزْقِ غبريال أُوك. وكانَ قَبْلَ سَنَةٍ قَدْ أَصْبَحَ مُزارِعًا يَعْمَلُ لِحِسابِهِ الخاصِّ عِنْدَما اقْتَرَضَ مالًا اشْتَرَى بِهِ مِئَتَيْنِ مِنَ الخِرافِ واسْتَأْجَرَ قِسْمًا مِنْ تَلَّةِ نورْكومْب لِتَرْبِيَةِ قَطيعِهِ هُناكَ.

لَمّا أَنْهى غبريال جَوْلَتَهُ التَّفَقُّدِيَّةَ الثّانِيَةَ عَلى الحَظائِرِ، لاحَظَ وُجودَ نورٍ ضَئيلٍ بَيْنَ الأَشْجارِ وَراءَ أَرْضِهِ. حَدَّقَ مُسْتَغْرِبًا، ورَأى أَنَّ النّورَ صادِرٌ مِنْ سَقيفَةٍ يَسْتَعْمِلُها أَصْحابُ الأَرْضِ المُجاوِرَةِ لِإيواءِ الماشِيَةِ. سارَ غبريال نَحْوَ السَّقيفَةِ واخْتَلَسَ النَّظَرَ مِنْ خِلالِ شَقٍّ في أَحَدِ الأَلْواحِ الخَشَبِيَّةِ، فَرَأى امْرَأَتَيْنِ تَهْتَمّانِ بِأَمْرِ بَقَرَةٍ مَريضَةٍ. قالَتْ إِحْداهُما، وهِيَ الأَكْبَرُ سِنًّا: «إِنَّني قَلِقَةٌ بِشَأْنِ ديزي، وأَتَمَنّى أَنْ تَتَعافى بِسُرْعَةٍ. ولٰكِنَّها سَتَحْتاجُ حَتْمًا، إلى نَوْعٍ مُعَيَّنٍ مِنَ الطَّعامِ.»

أَجابَتْ رَفيقَتُها الشّابَّةُ: «حَسَنًا. سَوْفَ أَذْهَبُ إلى القَرْيَةِ غَدًا وأُحْضِرُ لَكِ ما تُريدينَ. وسَأَبْحَثُ، في طَريقي، عَنْ قُبَّعَتي الّتي ضاعَتْ مِنّي.» وأَدْرَكَ غبريال أَنَّ تِلْكَ هِيَ الفَتاةُ الفاتِنَةُ الّتي رَآها في اليَوْمِ الفائِتِ تَتَرَبَّعُ فَوْقَ العَرَبَةِ.

الفارِسَة الماهِرَة

كانَ غبريال، في صَباحِ اليَوْمِ التّالي، يَمْشي في الأَرْضِ المَزْروعَةِ،أَسْفَلَ

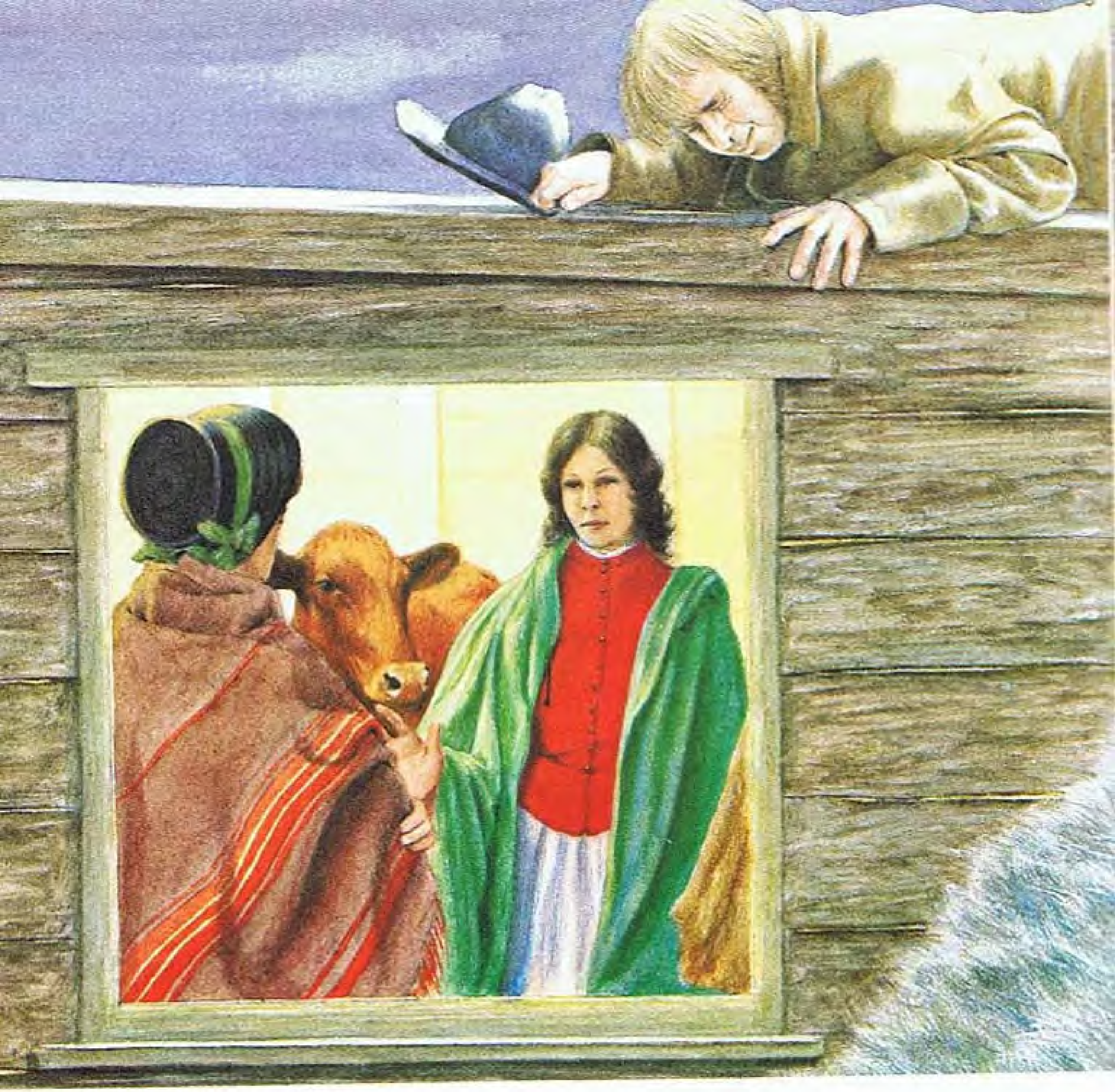

كوخِهِ، فَوَجَدَ قُبَّعَةَ تِلْكَ الفَتاةِ. ثُمَّ سَمِعَ وَقْعَ خُطى حِصانٍ، ورَأى الفَتاةَ مُمْتَطِيَةً جَوادَها وقَدِ انْبَطَحَتْ فَوْقَهُ لِأَنَّ الأَشْجارَ مُنْخَفِضَةٌ. ثُمَّ أَخَذَتْ تَنْظُرُ حَوْلَها وكَأَنَّها تُريدُ أَنْ تَتأَكَّدَ مِنْ أَنَّ أَحَدًا لَمْ يَرَها، وأَكْمَلَتْ طَريقَها نَحْوَ القَرْيَةِ. عادَتْ بَعْدَ حَوالَى ساعَةٍ واتَّجَهَتْ إِلى السَّقيفَةِ وأَخَذَتْ تَحْلِبُ البَقَرَةَ الَّتي بِداخِلِها.

تَوَجَّهَ غبريال نَحْوَ السَّقيفَةِ مُتَرَدِّدًا، وهُوَ يَحْمِلُ القُبَّعَةَ بِيَدِهِ. وقَبْلَ أَنْ يَصِلَ، رَآها تَخْرُجُ، وبِيَدِها دَلْوٌ مَمْلوءَةٌ حَليبًا. فَتَقَدَّمَ نَحْوَها، وقَدْ كادَ احْمِرارُ وَجْهِهِ يَفْضَحُ خَجَلَهُ، وقالَ لَها: «لَقَدْ وَجَدْتُ هٰذِهِ القُبَّعَةَ».

أجابَتْ: «أَجَلْ. إنَّها لي. لَقَدْ طارَتْ مِنّي اللَّيْلَةَ الماضِيَةَ. أَنْتَ المُزارِعُ السَّيِّدُ أوك، أَلَيْسَ كَذٰلِكَ؟»

– نَعَمْ، وقَدْ جِئْتُ إلى هٰذِهِ المِنْطَقَةِ مُنْذُ مُدَّةٍ قَصيرَةٍ.

– لَقَدْ بَحَثْتُ عَنْ قُبَّعَتي هٰذا الصَّباحَ وأَنا في طَريقي إلى القَرْيَةِ.

– أَعْرِفُ ذٰلِكَ. لَقَدْ رَأَيْتُكِ عَلى ظَهْرِ الجَوادِ.

أَحَسَّتِ الفَتاةُ بِالحَرَجِ فَلَمْ تُجِبْ. لِذٰلِكَ أَدارَ غبريال وَجْهَهُ وانْصَرَفَ.

لِقاء غَيْر مُتَوَقَّع

بَعْدَ حَوالَى أُسْبوعٍ، دَخَلَ غبريال أوك كوخَهُ عَصْرَ أَحَدِ الأَيّامِ البارِدَةِ، وأَوْقَدَ النّارَ. وقَدْ أَبْقى فُتْحاتِ التَّهْوِيَةِ مُقْفَلَةً، عَلى أَنْ يَفْتَحَها بَعْدَ أَنْ يُصْبِحَ جَوُّ الكوخِ دافِئًا. ولٰكِنَّهُ ما إنِ اسْتَلْقى عَلى فِراشِهِ حَتّى غَفا بِسُرْعَةٍ، لِأَنَّهُ كانَ تَعِبًا.

عِنْدَما اسْتَفاقَ غبريال كانَ يُحِسُّ بِصُداعٍ قَوِيٍّ وسَمِعَ كَلْبَهُ يَنْبَحُ. وقَدْ فوجِئَ بِأَنَّ رَأْسَهُ كانَ مُلْقًى عَلى حِضْنِ تِلْكَ الحَسْناءِ عَيْنَيها الَّتي فَتَنَتْهُ وأَخَذَتْ قَلْبَهُ. كانَتْ قَدْ فَتَحَتْ أَزْرارَ ياقَةِ قَميصِهِ، وانْهَمَكَتْ في نَضْحِ وَجْهِهِ بِالحَليبِ.

تَمْتَمَ أوك مُتَسائِلًا، وهُوَ ما يَزالُ مُنْذَهِلًا خائِرَ القُوى: «ما الأَمْرُ؟ ماذا حَدَثَ؟»

نَظَرَتْ إلَيْهِ الفَتاةُ وهِيَ تَبْتَسِمُ ابْتِسامَةً مَلائِكِيَّةً، وقالَتْ لَهُ: «الحَمْدُ للهِ. أَنْتَ الآنَ أَحْسَنُ حالًا. لَقَدْ نَجَوْتَ مِنَ الاخْتِناقِ بِأُعْجوبَةٍ. لَقَدْ سَمِعْتُ كَلْبَكَ يَنْبَحُ، ولَمّا رَأَيْتُ فُتْحاتِ التَّهْوِيَةِ مُغْلَقَةً، أَيْقَنْتُ أَنَّ الأَمْرَ يُنْذِرُ بِسوءٍ».

قالَ أوك: «لَقَدْ أَنْقَذْتِ حَياتي. أَنا أُدْعَى غبريال أوك.»

أَجابَتِ الفَتاةُ: «أَمّا أَنا فَاسْمي غَريبٌ نَوْعًا ما.»

فَقالَ غبريال: «عَلَيَّ أَنْ أَشْكُرَكِ بِشَكْلٍ لائِقٍ. هاتي يَدَكِ». تَرَدَّدَتِ الفَتاةُ قَليلًا، ثُمَّ مَدَّتْ لَهُ يَدَها. فَأَمْسَكَ بِها أوك لَحَظاتٍ، ثُمَّ قالَ: «إنَّني مُتَأَسِّفٌ!»

- ولِمَ الأَسَفُ؟
- لِأَنَّني تَرَكْتُ يَدَكِ بِسُرْعَةٍ.
- ها هِيَ ذي ثانِيَةً إذا أَرَدْتَ!

مَدَّتْ يَدَها ثانِيَةً فَأَمْسَكَها غبريال مُدَّةً أَطْوَلَ هٰذِهِ المَرَّةَ، وقالَ: «ما أَنْعَمَها!»

فَسَحَبَتْ يَدَها وقالَتْ: «هٰذا يَكْفي». ثُمَّ تَرَكَتْهُ وغادَرَتْ.

غبريال يَطْلُبُ يَدَ الفَتاة

تَأَكَّدَ غبريال مِنْ أَنَّهُ وَقَعَ في غَرامِ تِلْكَ الحَسْناءِ. وقَدْ عَلِمَ مِنْ أَحَدِ مَعارِفِهِ أَنَّ اسْمَها شِيبا إفِرْدين، وأَنَّها تَسْكُنُ مَعَ عَمَّتِها السَّيِّدَةِ هورسْت في الكوخِ القَريبِ.

أَخَذَ غبريال يُمَنّي نَفْسَهُ بِنِهايَةٍ سَعيدَةٍ لِحُبِّهِ هِيَ الزَّواجُ بِفَتاتِهِ هٰذِهِ. حاوَلَ أَنْ يَجِدَ عُذْرًا لِزِيارَةِ شِيبا، فَارْتَدى أَجْمَلَ ثِيابِهِ، صَباحَ أَحَدِ أَيّامِ كانونَ الثّاني (يناير) البارِدَةِ، وتَوَجَّهَ إلى كوخِ السَّيِّدَةِ هورسْت حامِلًا بِيَدِهِ حَمَلًا صَغيرًا كَهَدِيَّةٍ.

اِسْتَقْبَلَتْهُ السَّيِّدَةُ هورسْت مُرَحِّبَةً، وأَعْلَمَتْهُ أَنَّ شِيبا لَمْ تَكُنْ في المَنْزِلِ. فَقالَ لَها: «لَقَدْ أَحْضَرْتُ لِلآنِسَةِ إفِرْدين حَمَلًا صَغيرًا.» ثُمَّ سَكَتَ لَحَظاتٍ، وأَرْدَفَ: «لَقَدْ جِئْتُ أَطْلُبُ يَدَ شِيبا لِلزَّواجِ.»

اِسْتَغْرَبَتِ السَّيِّدَةُ هورسْت هٰذا الطَّلَبَ المُفاجِئَ، فَتَساءَلَتْ: «حَقًّا؟»

- هَلْ تَعْرِفينَ ما إذا كانَتْ عَلى عَلاقَةٍ بِشابٍّ آخَرَ؟
- إنَّ لَها، يا سَيِّدُ أوك، مُعْجَبينَ كُثُرًا، فَهِيَ كَما تَعْلَمُ جَميلَةٌ جِدًّا ومُثَقَّفَةٌ.
- يا لَسوءِ حَظّي. لَيْتَني كُنْتُ أَوَّلَ رَجُلٍ في حَياتِها... إلى اللِّقاءِ.

ما كادَ غبريال يَبْعُدُ مَسافَةً قَصيرَةً حَتّى سَمِعَ صَوْتًا يُناديهِ. اِسْتَدارَ فَرَأى شِيبا إفِرْدين راكِضَةً نَحْوَهُ عَلى الطَّريقِ. قالَتْ وقَدْ كادَتْ أَنْفاسُها تَنْقَطِعُ: «يا سَيِّدُ أوك. لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ أَنَّكَ سَتَأْتي وتَطْلُبُ يَدي... لَقَدْ أَخْطَأَتْ عَمَّتي إذْ قالَتْ لَكَ إنَّني أَعْرِفُ شابًّا آخَرَ، فَهٰذا غَيْرُ صَحيحٍ!»

أَشْرَقَ وَجْهُ أوك وانْفَرَجَتْ أَساريرُهُ، وقالَ لَها: «إنَّ هٰذا يُسْعِدُني كَثيرًا.» ومَدَّ يَدَهُ لِيُمْسِكَ بِيَدِها، لٰكِنَّها سَحَبَتْها بِسُرْعَةٍ. فَقالَ: «إنَّني أَمْلِكُ مَزْرَعَةً صَغيرَةً. لَقَدِ اقْتَرَضْتُ مالًا لِلْبَدْءِ بِها، وبِما أَنَّ العَمَلَ مُزْدَهِرٌ سَأُسَدِّدُ دُيوني قَريبًا. وإنَّني - بَعْدَ الزَّواجِ - سَأُضاعِفُ مِنْ جُهْدي في العَمَلِ.» ثُمَّ مَدَّ يَدَهُ ثانِيَةً، لٰكِنَّ شِيبا تَفادَتْهُ ومَشَتْ بِضْعَ خُطُواتٍ، وهِيَ تَقولُ: «ولٰكِنّي، يا سَيِّدُ أوك، لَمْ أَعِدْكَ بِالزَّواجِ!»

فَقالَ أوك مُنْفَعِلًا: «هَلْ يُعْقَلُ أَنْ تَلْحَقي بي لِتَقولي لي إنَّكِ لا تُريدينَني؟»

أجابَتْ بِعَزْمٍ وتَصْميم: «أَرَدْتُ أَنْ أُصَحِّحَ كَلامَ عَمَّتي. إِنَّما يُؤْسِفُني أَنْ أَقولَ لَكَ إِنَّني لا أُفَكِّرُ بِالزَّواجِ بِكَ. فَأَنا لا أُحِبُّكَ. أَرْجوكَ افْهَمْني: أَنا مُسْتَقِلَّةُ الرَّأْيِ وأَكْرَهُ القُيودَ. إِنَّني بِحاجَةٍ إِلى إِنْسانٍ أَقْوى مِنْكَ يَرْعاني ويُوَجِّهُني.»

قالَ غبريال: «لَنْ أُزْعِجَكِ بِطَلَبي هٰذا ثانِيَةً.»

الكارِثَة الكُبْرى

بَعْدَ مُدَّةٍ عَلِمَ غبريال أَنَّ شِيبا قَدْ تَرَكَتْ بَيْتَ عَمَّتِها واسْتَقَرَّتْ في وِذْبوري الَّتي تَبْعُدُ حَوالَى ثَلاثينَ كيلومِتْرًا. فزادَهُ بُعْدُها عَنْهُ حُبًّا وشَوْقًا.

كانَ لَدى غبريال كَلْبانِ لِمُساعَدَتِهِ في رِعايَةِ الماشِيَة، يُدْعَيانِ جورج الكَبيرَ وجورج الصَّغيرَ. أَمّا الكَبيرُ فَكَلْبُ رِعايَةٍ مُدَرَّبٌ وفَطِنٌ. وأَمّا الصَّغير فَكَلْبٌ مُتْعِبٌ يُفَضِّلُ مُطارَدَةَ الخِرافِ وتَفْريقَها عَلى مُراقَبَتِها وجَمْعِها.

وكانَ عِنْدَ حُدودِ الأَرْضِ مَقْلَعٌ لِلحِجارَةِ هُوَ عِبارَةٌ عَنْ حُفْرَةٍ كَبيرَةٍ مُسَيَّجَةٍ. وقَدْ أَفاقَ غبريال يومًا عَلى صَوْتِ اضْطِرابٍ وهِياجٍ بَيْنَ خِرافِهِ: كانَ الكَلْبُ الصَّغير قَدْ طارَدَها خارِجَ حَظائِرِها، وراحَ يَدْفَعُها لِلهَرَبِ نَحْوَ المَقْلَع. فقامَتِ الخِرافُ المَذْعورَةُ بِاخْتِراقِ السِّياجِ وسَقَطَ مُعْظَمُ القَطيعِ إِلى أَسْفَلِ الحُفْرَةِ مَيْتًا.

ما إِنْ خَرَجَ غبريال مِنَ الكوخِ حَتّى أَدْرَكَ جسامَةَ مُصيبَتِهِ: لَقَدْ قُضِيَ عَلَيْهِ بِالإِفْلاسِ، فَثَمَنُ الخِرافِ لَمْ يَكُنْ قَدْ سُدِّدَ كُلُّهُ. فَتَبَخَّرَتْ آمالُهُ بِأَنْ يكونَ مُزارِعًا يَعْمَلُ لِحِسابِهِ الخاصّ. جَلَسَ عَلى الأَرْضِ مَشْدوهًا، ولَمّا اسْتَفاقَ مِنْ صَدْمَتِهِ، قالَ: «أَحْمَدُ اللهَ لِأَنَّني لَسْتُ مُتَزَوِّجًا. إِنَّ الفَقْرَ يَنْتَظِرُني، فَما كانَ سَيَحِلُّ بِها؟» في الصَّباحِ فَكَّرَ غبريال بِأَمْرِهِ، وقَرَّرَ أَنْ يَدْفَعَ قِسْمًا مِنْ دُيونِهِ مِنْ مُدَّخَراتِهِ القَليلَةِ ومِمّا يَجْنيهِ مِنْ بَيْعِ ما عِنْدَهُ مِنْ مُعَدّاتٍ ومُقْتَنَيات.

البَحْث عَن عَمَل

أَمْضَى غَبريال أَسابيعَ عَديدَةً هُنا وهُناكَ، يُحاوِلُ - جاهِدًا - إيْجادَ وَظيفَةٍ لَهُ. ولَمّا لَمْ يُوَفَّقْ، قَرَّرَ الذَّهابَ إلى بَلْدَةِ كاسْتِربْرِدْج حَيْثُ تُقامُ سُوقٌ سَنَوِيَّةٌ يَأْتي إلَيْها كُلُّ المُزارِعينَ الّذينَ يَبْحَثونَ عَنْ عَمَلٍ. ولِسوءِ حَظِّ غبريال لَمْ يُساعِدْهُ كَوْنُهُ مُزارِعًا مُسْتَقِلاً سابِقًا على إيْجادِ عَمَلٍ. وسَمِعَ أَنَّ هُناكَ سوقًا أُخرى سَتُقامُ، في اليَوْمِ التّالي، في شوتسْفورْد، الّتي تَبْعُدُ سِتَّةَ عَشَرَ كيلومِتْرًا عَنْ وِذرْبوري، حَيْثُ ذَهَبَتْ شيبا، فَقَرَّرَ أَنْ يُجَرِّبَ حَظَّهُ في تِلْكَ المِنْطَقَةِ.

الحَريق

في غَسَقِ اليَوْمِ التّالي وَصَلَ غبريال إلى ضَواحي وِذرْبوري. جَلَسَ إلى جانِبِ الطَّريقِ لِيَرْتاحَ قَليلًا، فَرَأى أَلْسِنَةَ لَهَبٍ مُتَوَهِّجَةً في مَزْرَعَةٍ مُجاوِرَةٍ. اِتَّجَهَ إلى المَكانِ فَوْرًا، ووَجَدَ أَنَّ النّارَ تَلْتَهِمُ كومَةَ التِّبْنِ الكُبْرى. وكانَ بِالقُرْبِ مِنْها أَكْداسُ القَمْحِ الّتي تُمَثِّلُ حَصادَ المَزْرَعَةِ. اِنْدَفَعَ غبريال يُصْدِرُ تَعْليماتٍ إلى العُمّالِ الّذينَ هُرِعوا إلى المَكانِ. أَخَذَ الرِّجالُ يُنَفِّذونَ تَعْليماتِ هٰذا الغَريبِ، فَأَحْضَروا دِلاءَ الماءِ وأَفْرَغوها عَلى النّارِ فيما تَسَلَّقَ هُوَ نَفْسُهُ إلى أَعْلى الكومَةِ وراحَ يَخْنُقُ أَلْسِنَةَ اللَّهَبِ بِقِطَعِ قُماشٍ مُبَلَّلَةٍ. وقَدْ تَمَكَّنَ غبريال ومُساعِدوهُ مِنَ السَّيْطَرَةِ عَلى النّارِ وحَصْرِها ثُمَّ إطْفائِها نِهائِيًّا. وهٰكَذا تَمَّ إنْقاذُ مَحْصولِ القَمْحِ.

في غُضونِ ذٰلِكَ كانَ ثَمَّةَ امْرَأَةٌ تَمْتَطي جَوادًا وتُراقِبُ العَمَلِيَّةَ كُلَّها عَنْ بُعْدٍ. وقَدْ سَأَلَتْ خادِمَتَها: «مَنْ هٰذا الرَّجُلُ؟ عَصاهُ تَدُلُّ عَلى أَنَّهُ راعٍ!»

- إنَّهُ رَجُلٌ غَريبٌ، يا سَيِّدَتي، ويَبْدو أَنْ لا أَحَدَ يَعْرِفُهُ.

- أَبْلِغيهِ، يا مريانا، أَنَّ صاحِبَةَ المَزْرَعَةِ تُريدُ أَنْ تُقَدِّمَ لَهُ الشُّكْرَ.

عِنْدَما نَقَلَتِ الخادِمَةُ إلى غبريال رَغْبَةَ سَيِّدَتِها، اسْتَغْرَبَ وقالَ: «سَيِّدَتُكِ! هَلْ تَعْنينَ أَنَّ امْرَأَةً تَعْمَلُ مُزارِعَةً؟»

فَأَجابَتْهُ: «أَجَلْ أَيُّها الرّاعي، وهِيَ امْرَأَةٌ غَنِيَّةٌ. لَقَدْ أَتَتْ حَديثًا إلى المِنْطَقَةِ بَعْدَ أَنْ وَرِثَتِ المَزْرَعَةَ إثْرَ وَفاةِ عَمِّها.»

تَوَجَّهَ أُوك إلى السَّيِّدَةِ المُزارِعَةِ ورَفَعَ قُبَّعَتَهُ تَحِيَّةً لَها، وسَأَلَها: «هَلْ تَحْتاجينَ إلى تَوْظيفِ راعٍ يا سَيِّدَتي؟» أزاحَتِ السَّيِّدَةُ وِشاحَها وهِيَ تُخْفي دَهْشَتَها بِصَمْتٍ، فيما ذُهِلَ غبريال إذْ وَجَدَ نَفْسَهُ، وَجْهًا لِوَجْهٍ، أَمامَ مَحْبوبَتِهِ اللّامُبالِيَةِ شِيبا.

ثُمَّ قَطَعَتْ شِيبا الصَّمْتَ، وقالَتْ مُبْتَسِمَةً: «أَجَلْ إنّي بِحاجَةٍ لِراعٍ. قابِلْ وَكيلَ المَزْرَعَةِ فَيُرَتِّبَ الأَمْرَ». وهٰكَذا أَصْبَحَ غبريال يَعْمَلُ لَدى شِيبا.

فاني روبِن

بَعْدَ أَنْ تَحَدَّثَ غبريال مَعَ السَّيِّد پنيويز، وَكيلِ المَزْرَعَةِ، تَوَجَّهَ نَحْوَ حانَةِ البَلْدَةِ. وفي طَريقِهِ، كادَتْ تَصْدِمُهُ فَتاةٌ نَحيلَةٌ وهِيَ تَرْكُضُ. فَسَأَلَها: «هَلْ هٰذِهِ هِيَ الطَّريقُ المُؤَدِّيَةُ إلى الحانَةِ؟» أجابَتْهُ بِصَوْتٍ مُضْطَرِبٍ: «أَجَلْ، أَجَلْ. ولٰكِنْ أَرْجوكَ أَلّا تُخْبِرَ أَحَدًا أَنَّكَ رَأَيْتَني هُنا. إنّني في وَرْطَةٍ!»

قالَ غبريال: «كَما تُريدينَ! لَنْ أُخْبِرَ أَحَدًا. أَرْجوكِ اقْبَلي مِنّي هٰذِهِ، فَقَدْ تُساعِدُكِ». ومَدَّ يَدَهُ وفيها قِطْعَةٌ نَقْدِيَّةٌ. وإذْ لَمَسَ يَدَ الفَتاةِ أَحَسَّ أَنَّها بارِدَةٌ جدًّا. وتَمَكَّنَ مِنْ رُؤْيَةِ وَجْهِها، وكانَ شاحِبًا يَدُلُّ عَلى الأَسى والحُزْنِ.

وَبَيْنَما هُوَ في الحانَةِ جاءَ مَنْ يُخْبِرُ أَنَّ الآنِسَةَ إفْرْدين صَرَفَتْ وَكيلَ المَزْرَعَةِ بَعْدَ أَنْ ضَبَطَتْهُ وَهُوَ يَسْرِقُ، وأَنَّ فاني روبِن، خادِمَةَ الآنِسَةِ إفْرْدين، قَدِ اخْتَفَتْ.

كانَتْ شِيبا تُحِبُّ تِلْكَ الفَتاةَ اللَّطيفَةَ فاني. فَأَرْسَلَتْ رِجالَها، في اليَوْمِ التّالي، إلى القُرى المُجاوِرَةِ لِيَسْأَلوا عَنْها. وقَدْ وَصَلَها، بَعْدَ ظُهْرِ ذٰلِكَ اليَوْمِ، خَبَرٌ مُفادُهُ أَنَّ فاني قَدْ هَرَبَتْ مَعَ جُنْدِيٍّ مِنْ ثُكْنَةِ كاسْتَرْبرِدْج.

بَدَأَ الثَّلْجُ يَتَساقَطُ خِلالَ النَّهارِ، وما إنْ حَلَّ المَساءُ حَتّى كانَتِ المِنْطَقَةُ كُلُّها قَدِ اكْتَسَتْ بِحُلَّةٍ بَيْضاءَ كَثيفَةٍ. وخَلَتِ الطُّرُقاتُ إلّا مِنْ فَتاةٍ نَحيلَةٍ وَصَلَتْ بِخُطًى مُتَثاقِلَةٍ إلى ثُكْنَةِ كاسْتَرْبرِدْج. جَمَعَتِ الفَتاةُ، في يَدِها، كُرَةً صَغيرَةً مِنَ الثَّلْجِ

وقَذَفَتْها عَلى إحْدى النَّوافِذِ. ولَمّا فُتِحَتِ النّافِذَةُ قالَتْ بِصَوْتِها المُتَهَدِّجِ:

- هَلِ الرَّقيبُ تروْي مَوْجودٌ؟

- أَجَلْ. مَنْ يَطْلُبُهُ؟

- فرانك! ألا تَتَذَكَّرُني؟ أنا فاني روبِن حَبيبَتُكَ! قُلْ لي مَتى...؟

- لا تَسْتَعْجِلي الأَمْرَ. سَوْفَ أُقابِلُكِ غَدًا في شارِعِ نورْث.

أُقْفِلَتِ النّافِذَةُ عِنْدَها، فَذَهَبَتِ الفَتاةُ.

شِيبا بَيْنَ المُزارِعينَ

جاءَ مَوْعِدُ سُوقِ بَيْعِ الحُبوبِ في كاسْتِرْبِرِدْج، فَظَهَرَتْ فيهِ شِيبا لأَوَّلِ مَرَّةٍ، وكانَتِ الأُنْثى الوَحيدَةَ بَيْنَ المُزارِعينَ. والْتَفَتَ الرِّجالُ إِلَيْها يُلاحِقونَها بِأَعْيُنِهِمْ إِلّا رَجُلًا واحِدًا مِنْهُم كانَ في نَحْوِ الخامِسَةِ والأَرْبَعينَ مِنْ عُمْرِهِ، فَإِنَّهُ لَمْ يُعِرْها اهْتِمامًا. فسَأَلَتْ شِيبا عَنْهُ خادِمَتَها ليديا، فَأَجابَتْها: «هٰذا هُوَ المُزارِعُ السَّيِّدُ بولْدُوود. إِنَّهُ مُنْطَوٍ على نَفْسِهِ، ويُقالُ إِنَّهُ فَشِلَ في حُبِّهِ مُنْذُ سَنواتٍ عَديدَةٍ.»

البِطاقَة المَشْؤومَة

بَعْدَ بِضْعَةِ أَيّامٍ كانَتْ شِيبا في غُرْفَةِ الجُلوسِ تَقومُ بِتَرْتيبِ طاوِلَةِ المَكْتَبِ بِمُساعَدَةِ ليديا. فَتَوَقَّفَتْ عَنِ العَمَلِ فَجْأَةً، وقالَتْ: «تَبًّا. لَقَدْ كِدْتُ أَنْسى البِطاقَةَ الّتي اشْتَرَيْتُها أَمْسِ. سَأُرْسِلُها بِمُناسَبَةِ عيدِ القِدّيسِ فالنتين شَفيعِ المُحِبّينَ، لِلشّابِّ تيدي كوغان. إِنَّهُ يُؤَدّي لي بَعْضَ المُهِمّاتِ الصَّغيرَةِ.»

كَتَبَتْ شِيبا بِضْعَ كَلِماتٍ عَلى البِطاقَةِ. وقَبْلَ أَنْ تُدَوِّنَ اسْمَ المُرْسَلِ إِلَيْهِ عَلى الظَّرْفِ، طَلَعَتْ ليديا بِفِكْرَةٍ! قالَتْ وهِيَ تُقَهْقِهُ: «سَيَكونُ الأَمْرُ مُسَلِّيًا إِذا أَرْسَلْتِ البِطاقَةَ لِلمُغَفَّلِ العَجوزِ بولْدُوود. سَتُوقِعينَهُ في حَيْرَةٍ!».

أَطْرَقَتْ شِيبا لَحَظات وهِيَ تُقَلِّبُ فِكْرَةَ ليديا الغَريبَةَ. وبِالرَّغْمِ مِنِ انْزِعاجِها مِنْ بولْدُوود لِتَجاهُلِهِ وُجودَها في سُوقِ الحُبوبِ، إِلاّ أَنَّها كانَتْ حَذِرَةً، فَقالَتْ: «لا. لا يُمْكِنُ أَنْ أَفْعَلَ ذٰلِكَ. إِنَّها دُعابَةٌ خَطيرَةٌ». ثُمَّ فَكَّرَتْ ثانِيَةً وقالَتْ: «فَلْنُجْرِ قُرْعَةً كَما يَفْعَلُ الرِّجالُ. سَنَرْمي كِتابًا، فَإِذا وَقَعَ مُغْلَقًا أُرْسِلُها لِبولْدُوود. أَمّا إِذا وَقَعَ مَفْتوحًا فَأُرْسِلُها لِتيدي.»

هٰكَذا تَناوَلَتْ أَحَدَ الكُتُبِ فَرَمَتْهُ في الهَواءِ، ووَقَعَ عَلى الأَرْضِ مُغْلَقًا!

كَتَبَتْ شِيبا اسْمَ بولْدوود وعُنْوانَهُ على الظَّرْفِ، وخَتَمَتْهُ بِخاتَمٍ عَلَيْهِ عِبارَةُ «هَلْ تَتَزَوَّجُني؟»، ثُمَّ أَرْسَلَتِ البِطاقَةَ بِالبَريدِ.

لَمْ يَنْظُرِ السَّيِّدُ بولْدوود إلى البِطاقَةِ بِخِفَّةٍ كَما تَوَقَّعَتْ شِيبا وليديا. فَعِنْدَما أَوى إلى فِراشِهِ وَضَعَها على زاوِيَةِ المِرْآةِ قُرْبَ سَريرِهِ، وعادَ خِلالَ اللَّيْلِ إلى قِراءَتِها مِرارًا. لَقَدْ كَتَبَتْ لَهُ امْرَأَةٌ ما هٰذِهِ الكَلِماتِ. فَمَنْ هِيَ يا تُرى؟ ولِماذا فَعَلَتْ ذٰلِكَ؟ لَقَدْ وَقَعَ في حَيْرَةٍ كامِلَةٍ. وظَلَّتِ البِطاقَةُ مُسَيْطِرَةً على فِكْرِهِ بِاسْتِمْرارٍ.

الرِّسالَةُ الغَريبَةُ

في اليَوْمِ التّالي جاءَ ساعي البَريدِ بِرِسالَةٍ أُخرى إلى مَنْزِلِ بولْدوود، ولٰكِنَّها هٰذِهِ المَرَّةَ وَصَلَتْهُ خَطأً. كانَتِ العِبارَةُ التّالِيَةُ مَكْتوبَةً عَلى الظَّرْفِ:

إلى الرّاعي الجَديدِ في مَزْرَعَةِ وِذَرْبوري، قُرْبَ كاسْتَرْبِرِدْج.

أَدْرَكَ بولْدوود أَنَّها لِلرّاعي الّذي يَعْمَلُ عِنْدَ الآنِسَةِ إِفِرْدين أَي غبريال أوك، وقَرَّرَ أَخْذَها إِلَيْهِ بِيَدِهِ.

كانَ العُمّالُ في مِثْلِ هٰذا الوَقْتِ مِنْ صَباحِ كُلِّ يَوْمٍ يَأْتونَ إلى الحانَةِ لِتَناوُلِ الفَطورِ. كانَ في الدّاخِلِ كُلٌّ مِنْ جوزف بورْغراس وماثيو مون ومارْك كلارْك وهنري فراي، وكانوا يَتَحَدَّثونَ عَنْ سَيِّدَتِهِم الجَديدَةِ. ثُمَّ دَخَلَ غبريال أوك حامِلًا أَرْبَعَةَ حُمْلانٍ حَديثَةِ الوِلادَةِ، ووَقَفَ قُرْبَ البابِ. ثُمَّ خاطَبَهُمْ قائِلًا: «إِنَّكُمْ تَتَكَلَّمونَ عَنِ الآنِسَةِ إِفِرْدين كَالعادَةِ!»

قالَ مارْك كلارْك: «لَقَدْ كانوا يَتَذَمَّرونَ مِنْ تَكَبُّرِها وغُرورِها، مَعَ أَنَّها جَميلَةٌ».

فَأَجابَ غبريال بِحِدَّةٍ، وهُوَ يَرْفَعُ قَبْضَةَ يَدِهِ مُهَدِّدًا: «إِيّاكُمْ والثَّرْثَرَةَ حَوْلَ الآنِسَةِ إِفِرْدين. لَنْ أَسْمَحَ بِذٰلِكَ بَتاتًا.»

وهُنا تَدَخَّلَ جوزف بورْغراس قائِلًا: «اجْلِسْ يا سَيِّدُ أوك. لَمْ نَقْصِدْ إِهانَةَ أَحَدٍ. إِنَّنا نَحْتَرِمُكَ ونَعْتَقِدُ أَنَّ عَلى الآنِسَةِ إِفِرْدين أَنْ تُعَيِّنَكَ وَكيلًا لِلْمَزْرَعَةِ بَعْدَ أَنْ طَرَدَتْ بنيويز.»

عِنْدَها دَخَلَ السَّيِّدُ بولْدوود، وقالَ: «لَقَدْ قَدَّرْتُ أَنّي سَأَجِدُكَ هُنا يا سَيِّدُ أوك. هٰذِهِ الرِّسالَةُ سُلِّمَتْ إلى بَيْتي خَطأً.» أَخَذَ غبريال الرِّسالَةَ وقَرَأَ ما جاءَ فيها:

أَيُّها الصَّديقُ العَزيزُ،

أَنا لا أَعْرِفُ اسْمَكَ، ولٰكِنّي آمُلُ أَنْ تَصِلَكَ هٰذِهِ الرِّسالَةُ. أَوَدُّ أَنْ أَشْكُرَكَ عَلى مُعامَلَتِكَ اللَّطيفَةِ لي عِنْدَما الْتَقَيْتَ بي تِلْكَ اللَّيْلَةَ في وِذْبوري. وها إني أُعيدُ لَكَ المَبْلَغَ الّذي نَقَدْتَني إيّاهُ. لَقَدْ جَرَتِ الأُمور بِشَكْلٍ حَسَنٍ، وسَأَتَزَوَّجُ الرَّقيبَ تِرُوْي مِنَ الفِرْقَةِ الحادِيَةَ عَشْرَةَ. أَرْجو إِبْقاءَ الأَمْرِ سِرًّا حَتّى أُفاجِئَ الجَميعَ في وِذْبوري لَدى عَوْدَتِنا.

فاني روبِن

أَعْطى غبريال الرِّسالَةَ إلى بولْدوُود لِيَقْرَأَها. لَمّا انْتَهى بولْدوُود مِنْ قِراءَةِ الرِّسالَةِ، قالَ والقَلَقُ بادٍ عَلى وَجْهِهِ: «يا لَلمِسْكينَةِ! عَسى أَنْ يَكونَ ما تَقولُهُ فاني صَحيحًا!» فَتساءَل غبريال: «هَلْ تَعْرِفُ الرَّقيبَ تِرُوْي هٰذا؟»

أَجابَ بولْدوُود: «كُلُّنا نَعْرِفُهُ جَيِّدًا. إِنَّهُ مُغامِرٌ مُتَهَوِّرٌ، ومُخادِعٌ مُحَنَّكٌ. إِنّي أَشُكُّ في حَقيقَةِ نَواياهُ بِالنِّسْبَةِ لِهٰذِهِ الفَتاةِ السّاذَجَةِ.»

سارَ بولْدوُود مَعَ غبريال بِاتِّجاهِ المَزْرَعَةِ. وفي الطَّريقِ أَخْرَجَ مِنْ جَيْبِهِ الظَّرْفَ الّذي فيهِ بِطاقَةُ شِيبا، وتَوَجَّهَ إلى غبريال بِالسُّؤالِ: «هَلْ تَعْرِفُ صاحِبَ هٰذا الخَطِّ؟» أَجابَ غبريال مِنْ دونِ تَرَدُّدٍ: «إِنَّهُ خَطُّ الآنِسَةِ إِفْردين.»

العَريس الذي فَقَدَ صَبْرَه

بَعْدَ عِدَّةِ أَيّام، وَصَلَ الرَّقيبُ تِرُوْي إلى إِحْدى الكَنائِسِ في كاسْتِرْبِرِدْج، في الوَقْتِ المُعَيَّنِ لِعَقْدِ قِرانِهِ عَلى فاني روبِن. دَخَلَ المَبْنى في الحادِيَةَ عَشْرَةَ، وقَدْ بَدا شَكْلُهُ جَذّابًا إِذِ ارْتَدى اللِّباسَ العَسْكَرِيَّ ذا اللَّوْنَيْنِ الأَزْرَقِ والقِرْمِزِيِّ.

إِنْتَظَرَ تِرُوْي داخِلَ الكَنيسَةِ ساعَةً كامِلَةً، ولٰكِنْ لَمْ يَظْهَرْ لِفاني أَيُّ أَثَرٍ. وأَخيرًا مَشى إلى خارِجِ الكَنيسَةِ وقَدْ تَمَلَّكَهُ الغَضَبُ.

كانَ تِرُوْي في ساحَةِ الكَنيسَةِ عِنْدَما وَصَلَتِ العَروسُ المَوْعودَةُ، وبادَرَتْهُ لاهِثَةً:

«أُعْذُرْني يا فرانْك. لَقَدْ ذَهَبْتُ إلى الكَنيسَةِ الأُخرى، وانْتَظَرْتُ هُناكَ أَكْثَرَ مِنْ ساعَةٍ قَبْلَ أَنْ أَكْتَشِفَ غَلْطَتي.»

أجابَها بِحِدَّةٍ:

- أُصْمُتي أَيَّتُها البَلْهاءُ! لَقَدِ انْتَظَرْتُكِ كَالأَحْمَقِ!

- هَلْ سَنَتَزَوَّجُ غَدًا يا فرانْك؟

- غدًا!! وهَلْ تَظُنّينَ أَنّي مُغَفَّلٌ لِأَنْتَظِرَكِ ثانِيَةً؟؟

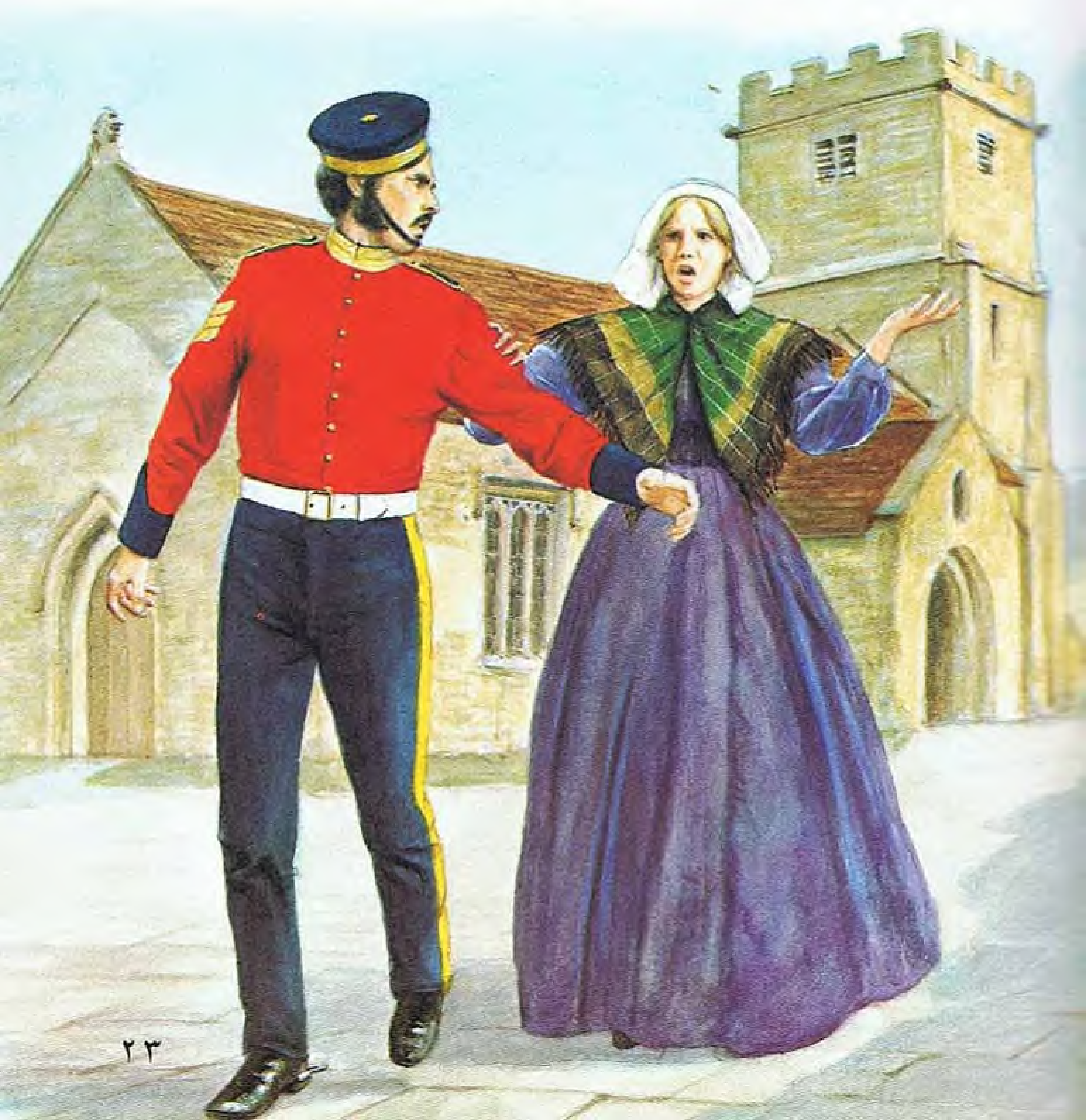

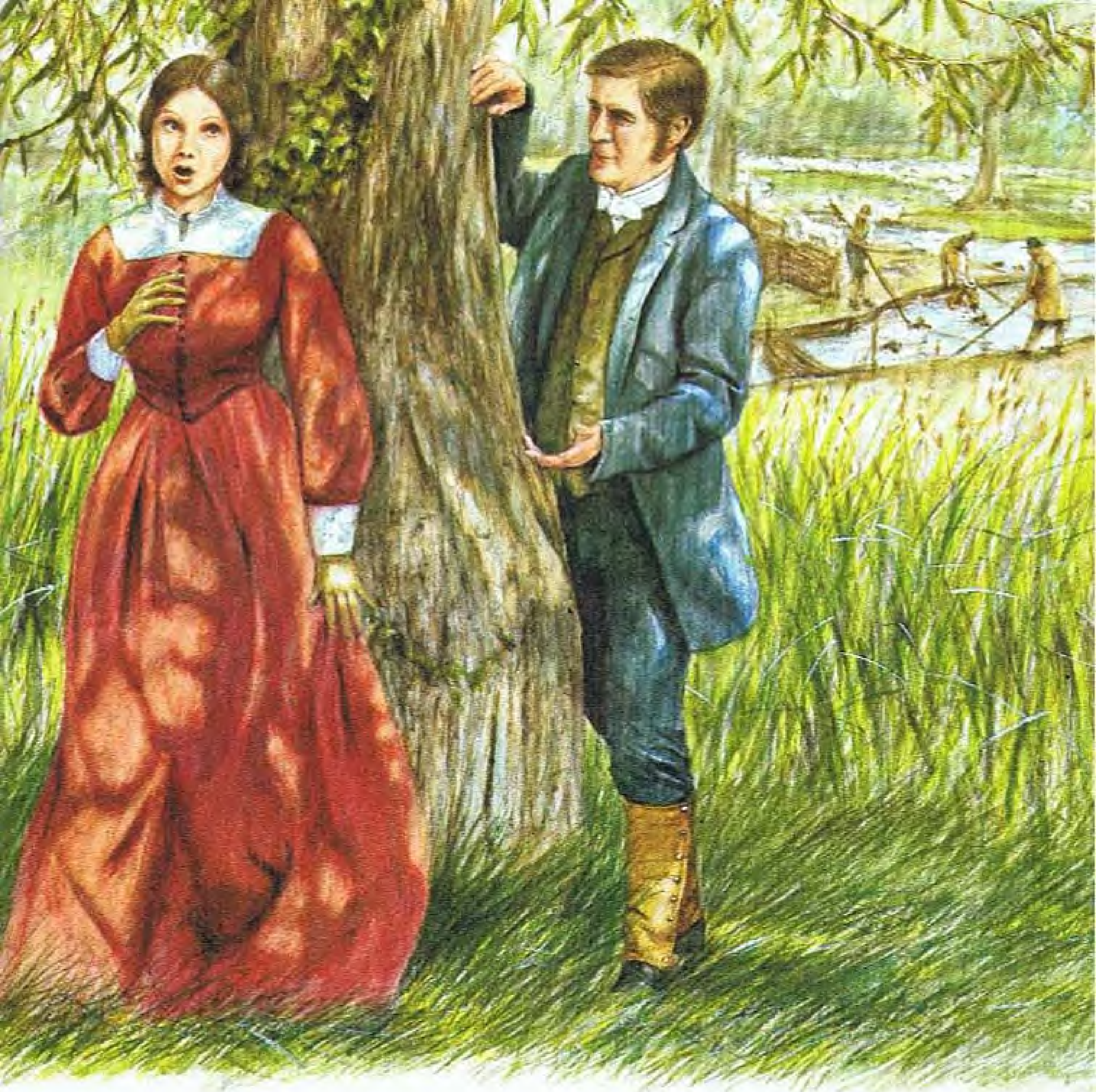

- لَقَدْ كانَ خَطأً غَيْرَ مَقْصودٍ. قُلْ لي مَتى سَتَتَزَوَّجُ يا فرانْك.

- اَللهُ أَعْلَمُ.

قالَ فرانْك ذٰلِكَ، وأَدارَ ظَهْرَهُ ومَشى.

بولْدوُود يُصَرِّحُ بِحُبِّهِ

أَخَذَتِ الأَيّامُ تَمُرُّ، وكانَ بولْدوُود يَرى شِيبا في سُوقِ الحُبوبِ، وفي أَنْحاءِ المَزْرَعَةِ. وقَدْ أَحَبَّها مِنْ بَعيدٍ بِصَمْتٍ وتَرَدَّدَ في طَلَبِ يَدِها خَشْيَةَ أَنْ تُجيبَهُ بِالرَّفْضِ. أَمّا شِيبا فَلَمْ تَكُنْ عَلى عِلْمٍ بِحَقيقَةِ الصِّراعِ الدّائِرِ في قَلْبِ بولْدوُود.

ظَلَّ بولْدُوود قابِعًا في صَمْتِهِ حَتّى قُدومِ الرَّبيعِ، فَاسْتَجْمَعَ كُلَّ ما أُوتِيَ مِنْ جُرْأَةٍ لِلإِعْلانِ عَنْ حُبِّهِ. كانَتِ المُناسَبَةُ إِقامَةَ الحَفْلِ التَّقْليدِيِّ السَّنَوِيِّ لِغَسْلِ الخِرافِ، وذٰلِكَ بِتَغْطيسِها في جَدْوَلِ ماءٍ لِتَنْظيفِ صُوفِها.

كانَتْ شِيبا تُراقِبُ العَمَلِيَّةَ بِشَغَفٍ فَسَمِعَتْ صوتًا يُخاطِبُها قائِلًا: «صَباحُ الخَيْرِ يا آنِسَةُ إِفْرْدين». نَظَرَتْ شِيبا إِلَيْهِ وتابَعَتْ مُراقَبَتَها، ثُمَّ أَخَذَتْ تَمْشي بَعيدًا فَتَبِعَها بولْدُوود وبادَرَها بِقَوْلِهِ: «مُنْذُ أَنْ رَأَيْتُكِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وأَنا لا أُفَكِّرُ إِلّا بِكِ. إِنَّني لا أُطيقُ العَيْشَ مِنْ دونِكِ... هَلْ تَقْبَلينَ بي زَوْجًا؟»

فُوجِئَتْ شِيبا بِهٰذا الطَّلَبِ، لٰكِنَّها سارَعَتْ إِلى القَوْلِ: «إِنَّني أُكِنُّ لَكَ كُلَّ احْتِرامٍ يا سَيِّدُ بولْدُوود. لٰكِنْ لا يُمْكِنُني قَبولُ عَرْضِكَ لِلأَسَفِ.»

أَجابَ بولْدُوود: «ولٰكِنَّ حَياتي سَتَكونُ جَحيمًا بَعيدًا عَنْكِ. إِنَّني أُحِبُّكِ لِدَرَجَةِ الجُنونِ. أَرْجوكِ إِذا كُنْتِ تَعْتَقِدينَ أَنَّهُ يُمْكِنُكِ أَنْ تُحِبّيني يَوْمًا فَقولي ذٰلِكَ.»

قالَتْ شِيبا في نَفْسِها: «كُلُّ ذٰلِكَ بِسَبَبِ تِلْكَ البِطاقَةِ». ثُمَّ اسْتَجْمَعَتْ أَفْكارَها، وخاطَبَتْهُ قائِلَةً: «لا يُمْكِنُني الزَّواجُ بِكَ يا سَيِّدي، بِالرَّغْمِ مِنِ احْتِرامي الشَّديدِ لَكَ وتَقْديري لِشَخْصِكَ الكَريمِ. إِنَّني لا أُناسِبُكَ. لَقَدْ كانَ عَمَلًا طائِشًا مِنّي أَنْ أُقْدِمَ عَلى إِرْسالِ تِلْكَ البِطاقَةِ.»

أَجابَها بولْدُوود مُحْتَجًّا: «لا. أَرْجوكِ لا تَقولي ذٰلِكَ. قَدْ تَكونُ البِطاقَةُ إِشارَةً إِلى بِدايَةِ إِعْجابٍ بي. قَدْ تَعْتَبِرينَ أَنَّني كَبيرُ السِّنِّ بِالنِّسْبَةِ لَكِ، ولٰكِنَّني مَيْسورُ الحالِ وبِإِمْكاني تَوْفيرُ كُلِّ احْتِياجاتِكِ.»

اِمْتَلأَ قَلْبُ شِيبا بِالتَّعاطُفِ مَعَ ذٰلِكَ الرَّجُلِ الصّادِقِ، فَقالَتْ لَهُ: «أَرْجو أَلّا تَكونَ مِلْحاحًا. إِنَّني بِحاجَةٍ لِلوَقْتِ الكافي كَيْ أُفَكِّرَ بِالأَمْرِ.»

كانَ لِهٰذا الجَوابِ أَثَرُهُ في تَمَكُّنِ بولْدُوود مِنْ كَبْحِ جِماحِ عَواطِفِهِ، فَقالَ: «حَسَنًا. سَأَنْتَظِرُ».

صَرْف غبريال مِن المَزْرَعَة

في اليَوْمِ التّالي، كانَ غبريال في فِناءِ المَزْرَعَةِ، يَقومُ بِشَحْذِ المِجَزّاتِ اسْتِعْدادًا لِجَزِّ صُوفِ الخِرافِ. جاءَتْ شِيبا وأَخَذَتْ تُساعِدُ غبريال في عَمَلِهِ.

بَعْدَ قَليلٍ، سَأَلَتْ شِيبا: «قُلْ لي، يا غبريال، هَلْ قالَ العُمّال شَيْئًا عَنْ حَديثي مَعَ بولْدوُود أَمْسِ.»

فَأَجابَ: «إِنَّهُمْ يَقولونَ إِنَّكُما سَتَتَزَوَّجانِ في شَهْرِ كانونَ الأَوَّلِ (ديسمبر).»

اِحْمَرَّ وَجْهُ شِيبا وقالَتْ: «هٰذا ما حَسِبْتُهُ، ولٰكِنَّهُ لَيْسَ صَحيحًا. أُريدُ مِنْكَ أَنْ تُخْبِرَهُمْ أَنَّهُ لَيْسَ صَحيحًا.»

أَجابَ غبريال:

- ولٰكِنَّ السَّيِّدَ بولدوُود كَلَّمَكِ عَنِ الزَّواجِ. أَلَيْسَ كَذٰلِكَ؟
- هٰذا شَأْني. المَطْلوبُ مِنْكَ أَنْ تُخْبِرَ الرِّجالَ إِنّي لَنْ أَكونَ زَوْجَتَهُ. إِنَّكَ - لا شَكَّ - تَذْكُرُ أَنَّني رَفَضْتُ الزَّواجَ بِكَ أَيْضًا.
- إِنَّني تَوَقَّفْتُ عَنِ التَّفْكيرِ بِهٰذا الأَمْرِ مُنْذُ مُدَّةٍ طَويلَةٍ.
- أَلَمْ تَعُدْ تُريدُ الزَّواجَ بي إِذًا؟
- لا أُريدُ ذٰلِكَ. وإِنَّني لا أُوافِقُ عَلى طَريقَتِكِ في الإِيقاعِ بِالسَّيِّدِ بولْدوُود.

هُنا ثارَتْ ثائِرَةُ شِيبا وصاحَتْ بِغبريال: «لا أَسْمَحُ لِأَيِّ رَجُلٍ يَعْمَلُ لَدَيَّ بِانْتِقادِ تَصَرُّفاتي. إِنَّ ما أَقومُ بِهِ لا يَعْنيكَ أَبَدًا. لَقَدْ تَجاوَزْتَ حُدودَكَ إِلى دَرَجَةِ الوَقاحَةِ الشَّديدَةِ. يُمْكِنُكَ أَنْ تَتْرُكَ المَزْرَعَةَ في نِهايَةِ الأُسْبوعِ!»

أَجابَ غبريال بِهُدوءٍ ورَصانَةٍ: «حَسَنًا! لَنْ تَرَيْ وَجْهي بَعْدَ ذٰلِكَ.»

المُصيبَةُ الّتي أَعادَتْ غبريال

ما إِنْ مَضَتْ أَيّامٌ قَلائِلُ، حَتّى اضْطُرَّتْ شِيبا لِأَنْ تَدْفَعَ الثَّمَنَ، إِذْ فوجِئَتْ بِعُمّالِ المَزْرَعَةِ يَرْكُضونَ مَذْعورينَ إِلى بَيْتِها لِيُخْبِروها أَنَّ أَكْثَرَ مِنْ خَمْسينَ خَروفًا قَدْ أَفْلَتَتْ مِنْ حَظائِرِها، وتَسَمَّمَتْ مِنْ أَكْلِ بَعْضِ الأَعْشابِ البَرِّيَّةِ.

في الحَقْلِ، رَأَتْ شِيبا الخِرافَ مُرْتَمِيَةً عَلى الأَرْضِ وقَدِ انْتَفَخَتْ أَجْسامُها وهِيَ تَتَنَفَّسُ لاهِثَةً. وسَمِعَتِ العامِلَ لابان تول يَقولُ: «هُناكَ طَريقَةٌ واحِدَةٌ لإِنْقاذِ هٰذِهِ الخِرافِ المِسْكينَةِ. ولَيْسَ، في الجِوارِ، مَنْ يَقومُ بِها غَيْرُ غبريال أوك.» فَصَرَخَتْ بِهِ شِيبا قائِلَةً: «إِيّاكَ أَنْ تَذْكُرَ اسْمَهُ أَمامي!»

شاهَدَتْ شِيبا واحِدًا مِنَ الخِرافِ يَموتُ أَمامَها، فَانْتابَها اليَأْسُ، وأَرْسَلَتْ لابان تول لِيُحْضِرَ غبريال لِمُعالَجَةِ الخِرافِ. وبَعْدَ عِشْرينَ دَقيقَةً، عادَ لابان عَلى جَوادِهِ، وأَخْبَرَ شِيبا أَنَّ غبريال لَنْ يَأْتِيَ إِلاّ إِذا طُلِبَ مِنْهُ ذٰلِكَ بِالشَّكْلِ اللائِقِ.

وَقَفَتْ شِيبا حائِرَةً وقَدِ اصْطَرَعَتْ في نَفْسِها مَشاعِرُ الخَوْفِ والكِبْرِياءِ. ولٰكِنَّ ما جَعَلَها تَتَغَلَّبُ عَلى كِبْريائِها وإِبائِها مَنْظَرُ أَحَدِ الخِرافِ يَقْفِزُ عالِيًا ويَرْتَمي عَلى الأَرْضِ بِلا حَراكٍ. أَسْرَعَتْ إِلى داخِلِ المَنْزِلِ ومَعَها لابان تول، وتَناوَلَتْ وَرَقَةً وقَلَمًا وكَتَبَتْ، وهِيَ تَخْنُقُ تَنَهُّداتِها، رِسالَةً رَقيقَةً إِلى غبريال أَنْهَتْها بِعِبارَةِ «لا تَتْرُكْني يا غبريال!»

قَبْلَ مُضِيِّ رُبْعِ ساعَةٍ كانَ غبريال في الحَقْلِ بَيْنَ الخِرافِ المُصابَةِ. تَصَرَّفَ بِهُدوءٍ، فَأَخَذَ آلَةً خاصَّةً هِيَ عِبارَةٌ عَنْ أُنْبوبٍ مَعْدِنِيٍّ فارِغٍ تَبْرُزُ مِنْ داخِلِهِ إِبْرَةٌ. عَمَدَ إِلى الخِرافِ، واحِدًا بَعْدَ الآخَرِ، فَوَخَزَ كُلًّا مِنْها، مِنْ جِلْدِهِ، بِعِنايَةٍ، في نُقْطَةٍ مُعَيَّنَةٍ عَلى جانِبِهِ الأَيْسَرِ. وفيما كانَ يَسْحَبُ الإِبْرَةَ، كانَتْ تَخْرُجُ مِنَ الأُنْبوبِ نَفْثَةُ هَواءٍ، فَيَخْتَفي مَعَها الانْتِفاخُ. وهٰكَذا اسْتَعادَتِ الخِرافُ عافِيَتَها تَدْريجًا. وقَدْ أَنْقَذَ غبريال تِسْعَةً وأَرْبَعينَ خَروفًا، وماتَ أَرْبَعَةٌ فَقَطْ.

لَمّا أَنْهى غبريال مُهِمَّتَهُ وعادَتِ الخِرافُ سالِمَةً إِلى مَرْعاها الصَّحيحِ، اقْتَرَبَتْ شِيبا مِنْهُ بِشَيْءٍ مِنَ التَّرَدُّدِ، وقَدْ عَلَتْ ثَغْرَها ابْتِسامَةٌ، وقالَتْ لَهُ: «هَلْ تَبْقى مَعي يا غبريال؟ إِنَّني بِحاجَةٍ إِلَيْكَ!» فَأَجابَ: «بِالطَّبْعِ سَأَبْقى.»

جَزُّ صُوفِ الخِراف

أَتى شَهْرُ حَزيرانَ (يونيو) فَحانَ مَوْعِدُ جَزِّ صُوفِ الخِرافِ.

دَخَلَتْ أَشِعَّةُ الشَّمْسِ مِنَ البابِ إلى داخِلِ الحَظيرَةِ الكُبْرى حَيْثُ كانَ كَبيرُ عُمّالِ الجَزِّ جان كوغان ومُساعِدوهُ يَعْمَلونَ، تَحْتَ إشْرافِ غبريال أُوك. عِنْدَما جاءَتْ شِيبا الحَظيرَةَ كانَ غبريال يَعْمَلُ بِبَراعَةٍ عَلى جَزِّ صُوفِ أَحَدِ الخِرافِ لِيُعْطِيَ أَحَدَ العُمّالِ فَتْرَةَ اسْتِراحَةٍ. بَعْدَ ذٰلِكَ بِحَوالَى نِصْفِ ساعَةٍ انْتَهَتْ عَمَلِيّاتُ الجَزِّ، وتَكَدَّسَتِ الأَصْوافُ كُومَةً كَبيرَةً. ثُمَّ جاءَ كايني بول بِوِعاءٍ فيهِ سائِلُ القَطِرانِ لِدَمْغِ الخِرافِ بِالحَرْفَينِ (ش. إ) لِلدَّلالَةِ عَلى مِلْكِيَّةِ شِيبا. وقَدْ شَعَرَ غبريال بِسَعادَةٍ بالِغَةٍ لِأَنَّ المُناسَبَةَ أَظْهَرَتْ قُدْراتِهِ أَمامَ سَيِّدَتِهِ الّتي لَمْ تُخْفِ إعْجابَها بِعَمَلِهِ.

ولٰكِنَّ سَعادَتَهُ لَمْ تَكْتَمِلْ إذْ دَخَلَ السَّيِّدُ بولْدُوود الحَظيرَةَ، وأَخَذَ يَتَحَدَّثُ إلى شِيبا. وبَعْدَ دَقائِقَ مِنْ تَبادُلِ الحَديثِ خَرَجَ بولْدوود وشِيبا مَعًا عَلى جَوادَيْهِما.

وقَدْ أَثارَ ذٰلِكَ انْتِباهَ جَميعِ العُمّالِ، فَأَخذوا، بَعْدَ رَحيلِهِما، يُرَدِّدونَ أَحاديثَهُمُ المُعْتادَةَ حَوْلَ زَواجِهِما.

الاحْتِفال الكَبير

دَعَتْ شِيبا جَميعَ العُمّالِ إلى العَشاءِ في حَديقَةِ مَنْزِلِها، ذٰلِكَ المَساءَ، لِلاحْتِفالِ بِإنْجازِ جَزِّ الصُّوفِ. وقَدْ دُعِيَ أَيْضًا السَّيِّدُ بولْدُوود بِصِفَتِهِ صَديقًا وجارًا. وقَدْ جَلَسَ الجَميعُ إلى مائِدَةٍ طَويلَةٍ عَلى رَأْسِها الآنِسَةُ شِيبا، وفي الجِهَةِ المُقابِلَةِ السَّيِّدُ بولْدُود. بَعْدَ العَشاءِ، أَخَذَ العُمّالُ يُغَنّونَ الأَغانِيَ الشَّعْبِيَّةَ. وعَزَفَ غبريال عَلى النّايِ لَحْنَ أُغْنِيَةٍ فيما أَخَذَتْ شِيبا تُغَنّي كَلِماتِها.

في نِهايَةِ السَّهْرَةِ، أَخَذَ المَدْعُوّونَ يَذْهَبونَ واحِدًا بَعْدَ الآخَرِ، وظَلَّ بولْدُوود وَحْدَهُ مَعَ شِيبا. وقَدِ اخْتارَ هٰذا الوَقْتَ لِيُكَرِّرَ طَلَبَ يَدِها، فَوَقَفَ أَمامَها وأَعْرَبَ عَنْ حُبِّهِ الدّائِمِ لَها وإخْلاصِهِ. وإذْ فُوجِئَتْ شِيبا بِتَكْرارِهِ طَلَبَهُ، حاوَلَتْ كَسْبَ الوَقْتِ، فَقالَتْ لَهُ بِصَوْتٍ مُضْطَرِبٍ: «سَوْفَ أُحاوِلُ أَنْ أُحِبَّكَ. ولٰكِنْ يَجِبُ أَنْ تُمْهِلَني الوَقْتَ الكافِيَ. أَرْجو أَنْ تَنْتَظِرَ بِضْعَةَ أَسابيعَ».

– وهَلْ تَعْتَقِدينَ أَنَّهُ يُمْكِنُ عِنْدَها أَنْ...

- قَدْ أَسْتَطيعُ، بَعْدَ خَمْسَةِ أَسابيعَ أَوْ سِتَّةٍ، أَنْ آخُذَ قَرارًا. ولٰكِنِ انْتَبِهْ! إِنَّني لَمْ أَعِدْكَ بِشَيْءٍ بَعْدُ.

- هٰذا يَكْفيني في الوَقْتِ الحاضِرِ. إِنَّني لا أَطْلُبُ أَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ.

رَجُل جَديد في حَياة شِيبا

في ساعَةٍ مُتَأَخِّرَةٍ مِنْ تِلْكَ اللَّيْلَةِ، كانَتْ شِيبا تَقومُ بِجَوْلَةٍ تَفَقُّدِيَّةٍ على مَخازِنِ الحُبوبِ والحَظائِرِ، فَسَمِعَتْ وَقْعَ خُطُواتٍ. ثُمَّ أَحَسَّتْ أَنَّ شَيْئًا ما قَدْ غَرَزَ في طَرَفِ ثَوْبِها. وسَمِعَتْ صَوْتَ رَجُلٍ يَقولُ: «يَبْدو أَنَّنا عَلِقْنا مَعًا.»

شَدَّتْ شِيبا ثَوْبَها مُحاوِلَةً الإِفْلاتَ. فَقالَ الرَّجُلُ: «مَهْلًا سَيِّدَتي، مَهْلًا. أَعْطيني مِصْباحَكِ، مِنْ فَضْلِكِ، حَتّى أَرَى ما يُمْكِنُني فِعْلُهُ».

أَتاحَ نورُ المِصْباحِ لِشِيبا رُؤْيَةَ زِيٍّ عَسْكَرِيٍّ قِرْمِزِيٍّ ذي أَزْرارٍ فِضِّيَّةٍ بَرّاقَةٍ، وشاهَدَتْ عَلى الكُمَّيْنِ شارَةَ رُتْبَةِ الرَّقيبِ.

جَذَبَتْ شِيبا ثَوْبَها بِشِدَّةٍ مِنْ دونِ جَدْوى لِأَنَّ طَرَفَهُ كانَ مُشْتَبِكًا ومِهْمازَ حِذاءِ الرَّجُلِ. فَقالَ لَها: «يَبْدو أَنَّكِ سَجينَتي يا آنِسَةُ. يُمْكِنُني أَنْ أَقْطَعَ طَرَفَ ثَوْبِكِ إذا كُنْتِ عَلى عَجَلَةٍ مِنْ أَمْرِكِ». فَأَجابَتْهُ بِحَزْمٍ: «أَجَلْ. اِفعَلْ ذٰلِكَ.»

ولٰكِنَّ الرَّقيبَ أَخَذَ يَعْمَلُ بِبُطْءٍ عَلى فَكِّ الاشْتِباكِ، وقالَ لَها وهُوَ يَقومُ عَلى عَمَلِهِ ويَرْميها بِنَظَراتِهِ: «إِنَّني أَشْكُرُكِ عَلى هٰذِهِ الصُّدْفَةِ الجَميلَةِ الّتي أَتاحَتْ لي تَأَمُّلَ وَجْهِكِ الرّائِعِ. لَقَدْ عَرَفْتُ في حَياتي الكَثيرَ مِنَ الحَسْناواتِ. ولٰكِنّي لَمْ أَرَ امْرَأَةً تَفوقُكِ جَمالًا... أَنا الرَّقيبُ تِرُوْي يا آنِسَتي.»

ما إِنْ تَحَرَّرَ ثَوْبُ شِيبا، حَتّى أَدارَتْ ظَهْرَها ومَشَتْ بِسُرْعَةٍ. ولَدى وُصولِها إِلى البَيْتِ نادَتْ ليديا مِنْ غُرْفَتِها وسَأَلَتْها: «هَلْ يُقيمُ في البَلْدَةِ جُنْدِيٌّ أَوْ رَقيبٌ شابٌّ حَسَنُ المَظْهَرِ والسُّلوكِ؟»

- قَدْ يَكونُ الرَّقيبَ تِرُوْي، يا آنِسَتي، إِنَّهُ يُمْضي إجازَتَهُ هُنا.
- أَيُّ نَوْعٍ مِنَ الرِّجالِ هُوَ؟
- إِنَّهُ إِنْسانٌ مُسْتَهْتِرٌ، كَثيرُ المُغامَراتِ، لٰكِنَّهُ ذَكِيٌّ ومُثَقَّفٌ.»

أَخَذَتْ شِيبا تَسْتَعيدُ حادِثَتَها مَعَ الرَّقيبِ تِرُوْي. ولَمْ تَنْسَ، بِالطَّبْعِ، أَنَّهُ مَدَحَ جَمالَها، وهٰذا شَيْءٌ لَمْ يَفْعَلْهُ بولْدوُود.

الرَّقيب تِرُوْي يَتَوَدَّد إلى شِيبا

كانَ الجَميعُ، في ذٰلِكَ الأُسْبوعِ، مُنْهَمِكينَ في قَطْعِ التِّبْنِ وتَجْفيفِهِ. وقَدْ ظَهَرَ الرَّقيبُ تِرُوْي مُرْتَدِيًا سُتْرَتَهُ الحَمْراءَ، لِلْمُساعَدَةِ. تَوَجَّهَ تِرُوْي مِنْ فَوْرِهِ إلى شِيبا، وقالَ لَها: «يا آنِسَةُ إِفِرْدين. إِنَّني لَمْ أُدْرِكْ، أَوَّلَ الأَمْرِ، أَنَّ المَرْأَةَ الّتي قابَلْتُها تِلْكَ اللَّيْلَةَ هِيَ أَنْتِ. أَرْجو أَنْ تَعْذِريني عَلى جُرْأَتي وتَغَزُّلي بِجَمالِكِ.»

- لا، أيُّها الرَّقيبُ ترُوْي. لا أُريدكَ أنْ تَعْتذِرَ. كَما إنّي أُؤكِّدُ لكَ أنّي لا أسْمَحُ لِلغُرباءِ بِرَفْعِ الكُلْفَةِ مَعي.

- حَسَنًا، يا سَيِّدَتي، ولٰكِنّي أطْلُبُ شَيْئًا واحِدًا: أيُمْكِنُ أنْ أُقابِلَكِ وأتَحادَثَ مَعكِ قَبْلَ أنْ تُغادِرَ فِرْقَتي المِنْطَقَةَ نِهائِيًّا بَعْدَ بِضْعَةِ أسابيعَ؟

- كَلّا... لَسْتُ أدْري... ولٰكِنْ لِماذا تَأْتي إلَيَّ وتُزْعِجُني بِكَلامِكَ هٰذا؟

حَيّاها الرَّقيبُ بِكُلِّ أدَبٍ، وانْصَرَفَ عائِدًا إلى عَمَلِهِ في الحَقْلِ. لَقَدْ كانَ واثِقًا مِنْ أنَّهُ خَطا خُطُواتٍ هامَّةً لِلتَّقَرُّبِ مِنْ شيبيا، وأنَّ لِقاءَهُ بِها وَشيكٌ.

صَدَقَ حَدْسُ ترُوْي، إذْ إنَّهُ بَعْدَ يَوْمَيْنِ رَآها في البُسْتانِ وهِيَ تَتَسَلَّقُ سُلَّمًا في مُحاوَلَةٍ لإعادَةِ مَجْموعَةٍ مِنَ النَّحْلِ إلى قَفيرِها. فصاحَ: «صَباحُ الخَيْرِ، يا آنِسَةُ إفْرْدين. إنَّها مُهِمَّةٌ خَطِرَةٌ، فَاسْمَحي لي بِمُساعَدَتِكِ»، ولَمْ يَنْتَظِرْ جوابًا، بَلْ تَوَجَّهَ فَوْرًا لِمُساعَدَتِها وهِيَ تَنْزِلُ السُّلَّمَ، ثُمَّ أكْمَلَ المُهِمَّةَ بِنَفْسِهِ.

قالَ ترُوْي بَعْدَ ذٰلِكَ: «لَعَمْري إنَّ صُعودَ هٰذا السُّلَّمِ ونُزولَهُ مَعَ حَمْلِ القَفيرِ يُسَبِّبُ تَعَبًا يَفوقُ ذاكَ النّاتِجَ عَنْ تَمارينِ السَّيْفِ لِمُدَّةِ أُسْبوعٍ كامِلٍ!»

بَدا التَّساؤُلُ في عَيْنَيْ شيبيا، فَعَرَضَ ترُوْي أنْ يَقومَ في ذٰلِكَ المَساءِ بِبَعْضِ التَّمارينِ بِالسَّيْفِ أمامَها، فوافَقَتْ مِنْ دونِ تَرَدُّدٍ كَأنَّها مُراهِقَةٌ تَتَواعَدُ مَعَ فارِسِ أحْلامِها المُنْتَظَرِ. وفي المَساءِ ذَهَبَتْ إلى المَكانِ المُعَيَّنِ.

بَدَأَ ترُوْي فَوْرًا بِاسْتِعْراضِهِ مُظْهِرًا بَراعَتَهُ الفائِقَةَ في اللَّعِبِ بِالسَّيْفِ. وقَدْ أثارَ لَدى شيبيا الشُّعورَ بِالإثارَةِ والرَّهْبَةِ لِأنَّ حَرَكاتِهِ جَمَعَتْ بَيْنَ الرَّشاقَةِ والقُوَّةِ.

تَوَقَّفَ ترُوْي قَليلًا، ثُمَّ قالَ لَها: «والآنَ، لِنَفْتَرِضْ أنَّكِ عَدُوّي في المَعْرَكَةِ، ولٰكِنْ إيّاكِ أنْ تَجْفِلي. كوني جامِدَةً كَالتِّمْثالِ. سَوْفَ يَمُرُّ السَّيْفُ قُرْبَكِ، لٰكِنْ لا تَخافي لِأنَّهُ لَيْسَ حادًّا.»

ثُمَّ شَرَعَ يُلَوِّحُ بِسَيْفِهِ وقَدْ أَخَذَ نَصْلُهُ يَتَلأْلأُ في حَرَكَةٍ دائِرِيَّةٍ سَريعَةٍ تَحْبِسُ الأَنْفاسَ، وقَدْ ثَبَتَتْ شِيبا في مَكانِها مِنْ دُونِ حَرَكَةٍ لِأَنَّ السَّيْفَ كانَ يَمُرُّ على قابِ شُعَيْراتٍ مِنْها. وما إِنِ انْتَهى مِنِ اسْتِعْراضِهِ حَتّى قالَ لَها: «مَهْلًا، مَهْلًا. هُناكَ خُصْلَةٌ مِنْ شَعْرِكِ أَطْوَلُ مِنْ سِواها.» أَحَسَّتْ شِيبا بِذٰلِكَ المَعْدِنِ الأَبْيَضِ اللَّمّاعِ يَمُرُّ كَالبَرْقِ الخاطِفِ قُرْبَ كَتِفِها، ثُمَّ رَأَتْ خُصْلَةَ الشَّعْرِ على الأَرْضِ، فَصاحَتْ مَذْعورَةً: «ولٰكِنَّكَ قُلْتَ إِنَّ السَّيْفَ غَيْرُ مَسْنونٍ!»

فَأَجابَ مُقَهْقِهًا: «غَيْرُ مَسْنونٍ؟! إنَّ هٰذا السَّيْفَ حادٌّ جِدًّا.. عَلَيَّ أَنْ أَذْهَبَ الآنَ. ولٰكِنّي أَسْتَأْذِنُكِ بِالاحْتِفاظِ بِخُصْلَةِ الشَّعْرِ هٰذِهِ.» اِقْتَرَبَ مِنْها لِيُوَدِّعَها، وما إنِ اسْتَدارَ ومَشى حَتّى أَدْرَكَتْ أَنَّهُ قَبَّلَها قَبْلَ أَنْ يَذْهَبَ!

شيبا تَرْفُضُ عَرْضَ بولْدوُود

وَقَعَتْ شيبا في حُبِّ تِرُوْي. وكانَتْ تُصِمُّ أُذُنَيْها عَنْ سَماعِ أَيِّ انْتِقادٍ لِتَصَرُّفاتِهِ وسُلوكِهِ. وقَدْ ساءَها أَنْ يَقومَ حارِسُها الدّائِمُ غبريال بِتَحْذيرِها مِنَ الوُقوعِ في شِباكِ هٰذا الرَّجُلِ المُغامِرِ. كانَتْ مُصَمِّمَةً، فَكَتَبَتْ رِسالَةً إلى بولْدوُود تُخْبِرُهُ فيها أَنَّها، بَعْدَ أَنْ فَكَّرَتْ مَلِيًّا في عَرْضِهِ، وَصَلَتْ إلى قَناعَةٍ بِأَنَّها لا تَسْتَطيعُ الزَّواجَ بِهِ.

حَرَصَتْ شِيبا، بَعْدَ ذٰلِكَ، عَلى تَجَنُّبِ لِقاءِ بولْدوُود. ولٰكِنَّها فُوجِئَتْ، صَباحَ أَحَدِ الأَيّامِ، بِرُؤْيَتِهِ مُتَّجِهًا نَحْوَ مَنْزِلِها. وما إِنْ وَصَلَ حَتّى بادَرَتْهُ بِالقَوْلِ، مُتَظاهِرَةً بِالبَراءَةِ: «أَهْلًا سَيِّدُ بولْدوُود». فَقالَ: «عَزيزَتي شِيبا، هَلْ قَرارُكِ نِهائِيٌّ؟»

- أَجَلْ، إِنَّهُ لَكَذٰلِكَ.

- ولٰكِنْ فَكِّري بي، يا شِيبا، وبِمَصيري.

- إِنَّ اهْتِمامي بِأَمْرِكَ دَفَعَني إلى قَراري. إِنّي لَمْ أَعِدْكَ بِشَيْءٍ يا سَيِّدُ بولْدوُود.

- ولٰكِنَّكِ شَجَّعْتِني وأَمَّلْتِني، والآنَ تَرْفُضينَني! إِنَّ النّاسَ يَهْزَؤونَ بي.. لَقَدْ فَقَدْتُ سُمْعَتي الطَّيِّبَةَ وكَرامَتي.

بَدَأَتْ شِيبا تَشْعُرُ بِالضّيقِ والحَرَجِ، وأَجابَتْ: «أَرْجوكَ لا تُلْقِ بِاللّائِمَةِ عَلَيَّ.»

فَأَجابَها: «أَرى أَنَّ الجميعَ يَعْرِفونَ أَنَّكِ حَوَّلْتِ مَسارَ حُبِّكِ. لَقَدْ بَهَرَتْكِ البِذْلَةُ الحَمْراءُ اللّامِعَةُ. إِنَّ عَمَلَكِ هٰذا طائِشٌ حَقًّا. لا أَشُكُّ في أَنَّكِ تَرَكْتِ ذٰلِكَ الحَقيرَ يُقَبِّلُكِ!» فَقالَتْ شِيبا مُحْتَدَّةً: «أَنا لا أُنْكِرُ أَنَّ ذٰلِكَ حَصَلَ فِعْلًا.»

فَثارَتْ ثائِرَةُ بولْدوُود وانْفَجَرَ قائِلًا: «سَوْفَ أَنالُ مِنْهُ.. سَوْفَ أُحَطِّمُهُ.»

ماذا فَعَلَتْ شِيبا في باث؟

باتَ هَمُّ شِيبا الأَوَّلُ أَنْ تَمْنَعَ الرَّقيبَ تْرُوْي مِنَ العَوْدَةِ إلى وِذِرْبوري مِنْ باث، لِأَنَّها رَأَتْ أَنَّ بولْدوُود سَيَتَعَرَّضُ لَهُ حَتْمًا. وقَرَّرَتْ أَنَّ أَفْضَلَ طَريقَةٍ لِمَنْعِ عَوْدَتِهِ هِيَ أَنْ تَذْهَبَ بِنَفْسِها إلى باث وتُخْبِرَهُ بِضَرورَةِ قَطْعِ العَلاقَةِ بَيْنَهُما. فَأَسْرَجَتْ لَيْلًا جِيادَها وانْطَلَقَتْ سِرًّا إلى باث.

مَرَّ أُسْبوعٌ كامِلٌ عَلى مُغادَرَتِها مِنْ دُونِ أَنْ يَأْتِيَ مِنْها أَيُّ خَبَرٍ. وأَخيرًا تَسَلَّمَتْ ليديا رِسالَةً مِنْ سَيِّدَتِها، تَقولُ فيها إِنَّها تَنْوي العَوْدَةَ خِلالَ أُسْبوعٍ. لٰكِنْ سُرْعانَ ما وَصَلَ نَبَأٌ مُثيرٌ مُفادُهُ أَنَّ شِيبا شوهِدَتْ في باث تَتَأَبَّطُ ذِراعَ تْرُوْي.

وَصَلَتْ شِيبا، في تِلْكَ اللَّيْلَةِ، إلى مَنْزِلِها في عَرَبَتِها. وبَعْدَ لَحظاتٍ مِنْ دُخولِها، جاءَ بولْدوُود، ولَمْ يَكُنْ عَلى عِلْمٍ بِذَهابِها إلى باث، إذْ كانَ يَظُنُّ أَنَّها في زِيارَةِ صَديقَةٍ لَها في قَرْيَةٍ مُجاوِرَةٍ. بَعْدَ أَنْ فَتَحَتْ لَهُ ليديا البابَ، ذَهَبَتْ لِتُعْلِمَ سَيِّدَتَها بِوُصولِهِ وعادَتْ لِتُخْبِرَهُ بِأَنَّ شِيبا تَعْتَذِرُ عَنْ عَدَمِ اسْتِطاعَتِها اسْتِقْبالَهُ في تِلْكَ اللَّيْلَةِ. تَلَقَّى بولْدوُود صُدودَ شِيبا بِهُدوءٍ ورَصانَةٍ، وعادَ أَدْراجَهُ إلى مَنْزِلِهِ، فَهُوَ كانَ قَدْ أَتى لِيُقَدِّمَ اعْتِذارَهُ عَمّا بَدَرَ مِنْهُ مِنْ عَنيفِ الكَلامِ في زِيارَتِهِ الأَخيرَةِ.

وصَدَفَ أَنَّ بولْدوُود، وهُوَ مارٌّ في القَرْيَةِ، الْتَقى الرَّقيبَ تروْي يَنْزِلُ مِنْ عَرَبَةٍ أُجْرَةٍ، فَقَرَّرَ مُواجَهَتَهُ في تِلْكَ اللَّحْظَةِ بِالذّاتِ. فَصاحَ بِهِ: «أَيُّها الرَّقيبُ ترُوْي. أُريدُ أَنْ أُحادِثَكَ.»

– وعَمّا تُريدُ أَنْ نَتَحَدَّثَ؟

– عَنِ امْرَأَةٍ أَسَأْتَ إِلَيْها. إِنّي أَعْرِفُ كُلَّ شَيْءٍ عَنْ عَلاقَتِكَ بِفاني روبِن، وغبريال أُوك يَعْرِفُ كَذٰلِكَ. يَجِبُ أَنْ تَتَزَوَّجَ بِها.

وهُنا تَرَدَّدَ ترُوْي لَحظاتٍ، ثُمَّ قالَ: «قَدْ يَكونُ ذٰلِكَ واجِبًا عَلَيَّ، لٰكِنَّ وَضْعي المالِيَّ لا يَسْمَحُ لي بِالزَّواجِ في الوَقْتِ الحاضِرِ.»

فَأَجابَ بولْدوُود: «إِسْمَعْ يا رَجُلُ، لَسْتُ هُنا لأُناقِشَ وَضْعَكَ ولا واجِباتِكَ. إِنَّ الآنِسَةَ إِفْرْدين أَرْفَعُ مِنْكَ مُسْتَوًى ولَنْ تَتَنازَلَ لِدَرَجَةِ القَبولِ بِكَ زَوْجًا. لِذٰلِكَ أَطْلُبُ مِنْكَ أَلّا تُسيءَ إِلَيْها بَعْدَ الآنَ... إِبْتَعِدْ عَنْها وتَزَوَّجْ فاني روبِن، وأَنا أُعَوِّضُكَ عَنْ ذٰلِكَ مالًا وَفيرًا: سَوْفَ أَدْفَعُ لَكَ خَمْسينَ جُنَيْهًا الآنَ، وسَتَنالُ فاني خَمْسَمِئَةِ جُنَيْهٍ لِلاسْتِعْدادِ لِلزَّواجِ. وسَأُقَدِّمُ لِكُلٍّ مِنْكُما، يَوْمَ الزِّفافِ، خَمْسَمِئَةِ جُنَيْهٍ. فَهَلْ تُوافِقُ؟»

أجابَ تُرُوْي بِالإيْجابِ، فَقالَ بولْدوُود: «إذًا هاكَ خَمْسينَ جُنَيْهًا ذَهَبيًّا.» وناوَلَهُ كِيسًا صَغيرًا.

سَألَهُ تُرُوْي: «وكَيْفَ تَتأكَّدُ مِنْ أنّي سَأفي بِوَعْدي يا سَيِّدُ... مَهْلًا مَهْلًا، هُناكَ شَخْصٌ آتٍ نَحْوَنا... إنَّها شِيبا، هِيَ تَنْتَظِرُ قُدومي اللَّيْلَةَ. سَوْفَ أُنَفِّذُ وَعْدي لَكَ. يُمْكِنُكَ أنْ تَخْتَبِئَ وتَسْمَعَ ما سَأقولُهُ لَها: سَوْفَ أُخْبِرُها أنَّهُ يُسْتَحْسَنُ أنْ نَفْتَرِقَ، وسَوْفَ أُوَدِّعُها».

إنْسَحَبَ بولْدوُود واخْتَبَأَ وَراءَ سِياجٍ بِجانِبِ الطَّريقِ، بَيْنَما تَقَدَّمَ تُرُوْي قَليلًا لِمُلاقاةِ شِيبا الّتي بادَرَتْهُ بِالسُّؤالِ:

- أهٰذا أنْتَ يا حَبيبي فرانْك؟
- أجَلْ يا حَياتي.
- لَيْسَ في المَنْزِلِ أحَدٌ اللَّيْلَةَ سِوايَ. تَعالَ إلى مَنْزِلِ حَبيبَتِكَ.
- رائِعٌ. إذْهَبي أنْتِ الآنَ، وسَأتْبَعُكِ بَعْدَ قَليلٍ.

أثارَ هٰذا الحَديثُ حَنَقَ بولْدوُود. فما إنِ ابْتَعَدَتْ شِيبا حَتّى قَفَزَ مِنْ مَخْبَئِهِ وأطْبَقَ على عُنُقِ تُرُوْي وهُوَ يُهَدِّدُهُ قائِلًا: «أيُّها الخَسيسُ، سَأقْتُلُكَ الآنَ.»

فَقالَ تُرُوْي: «إذا فَعَلْتَ ذٰلِكَ سَتَقْضي عَلَيْها وعَلى مُسْتَقْبَلِها. يَجِبُ أنْ أتَزَوَّجَ مِنْها وإلّا أصابَها العارُ». تَراجَعَ بولْدوُود لَدى سَماعِهِ ذٰلِكَ، وفَكَّرَ بِالعَواقِبِ السَّيِّئَةِ على شِيبا، ثُمَّ قالَ لاهِثًا: «إذًا، يا تُرُوْي، عَلَيْكَ أنْ تَتَزَوَّجَ شِيبا، فَهٰذا أهْوَنُ الشَّرَّيْنِ. إنّي أتَنازَلُ عَنْ طَلَبي إيّاها».

فَقالَ تُرُوْي: «ولٰكِنْ ماذا يَحُلُّ بِفاني روبن؟ أيًّا مِنْهُما تُريدُني أنْ أتَزَوَّجَ؟» وأجابَ بولْدوُود: «بِرَبِّكَ تَزَوَّجْ شِيبا. سَأدْفَعُ لَكَ خَمْسَمِئَةِ جُنَيْهٍ لِلزَّواجِ بِها بَدَلًا مِنْ فاني، سَأنْقُدُكَ المَبْلَغَ يَوْمَ الزَّواجِ.» فَقالَ تُرُوْي: «فَلْيَكُنْ كَذٰلِكَ. عَلَيَّ الآنَ أنْ أرى شِيبا.»

وهٰكَذا ذَهَبا مَعًا إلى بَيْتِ شِيبا. دَخَلَ تُرُوْي وَحْدَهُ تارِكًا بولْدوُود مُنْتَظِرًا في الخارِجِ تَحْتَ جُنْحِ الظَّلامِ. ثُمَّ عادَ بَعْدَ لَحَظاتٍ يَحْمِلُ شَمْعَةً مُضاءَةً وخاطَبَ بولْدوُود قائِلًا: «خُذْ يا سَيِّدُ بولْدوُود. اِقْرَأْ هٰذِهِ الوَرَقَةَ.»

تَناوَلَ بولْدوُود الوَرَقَةَ المَطْوِيَّةَ، وفَتَحَها وقَرَأها، فإذا هِيَ وَثيقَةٌ رَسْمِيَّةٌ تُثْبِتُ أنَّ تُرُوْي وشِيبا قَدْ تَزَوَّجا في بَلْدَةِ باث.

وَقَفَ بولْدوُود مَشْدوهًا، فيما راحَ تُرُوْي يُقَهْقِهُ ساخِرًا، ثُمَّ قالَ: «هٰذِهِ عاقِبَةُ تَدَخُّلِكَ بَيْنَ رَجُلٍ وزَوْجَتِهِ. لَعَلَّكَ قَدْ تَعَلَّمْتَ دَرْسًا. خُذْ نُقودَكَ وارْحَلْ.»

ورَمى ترُوْي كِيسَ المالِ فيما راحَ بولْدوُود، في ثَوْرَةِ غَضَبٍ عارِمٍ، يَتَهَدَّدُ ويَتوَعَّدُ: «عَلَيْكَ اللَّعْنَةُ أيُّها الحَقيرُ. إنَّكَ غَشّاشٌ مُخادِعٌ، سَأنالُ مِنْكَ يَوْمًا.»

اِحْتِفال الحَصاد

قَبْلَ نِهايَةِ شَهْرِ آبٍ كانَ قَدْ تَمَّ جَمْعُ الحُبوبِ. وجَرَى احْتِفالُ الحَصادِ الكَبيرُ في أكْبَرِ مَخازِنِ المَزْرَعَةِ. كانَ جَوُّ الاحْتِفالِ في الدّاخِلِ بَهيجًا مَرِحًا، وقَدِ اشْتَرَكَ الرَّقيبُ ترُوْي وزَوْجَتُهُ شِيبا في بَعْضِ الرَّقَصاتِ. أمّا في الخارِجِ، فَقَدْ وَقَفَ غبريال وَحيدًا، وكانَتِ اللَّيْلَةُ شَديدَةَ الحَرارَةِ والرُّطوبَةِ. نَظَرَ غبريال إلى السَّماءِ فَرَأى غُيومًا تُنْذِرُ بِأمْطارٍ غَزيرَةٍ. فَنادَى كايني بول وأرْسَلَهُ إلى الرَّقيبِ ترُوْي لِيُخْبِرَهُ بِمَخاوِفِهِ، فَجاءَهُ الرَّدُّ: «يَقولُ السَّيِّدُ ترُوْي إنَّ السَّماءَ لَنْ تُمْطِرَ، ولا يُريدُ أنْ تُزْعِجَهُ بِمِثْلِ هٰذِهِ التَّفاهاتِ!»

خاطَبَ ترُوْي المُجْتَمِعينَ قائِلًا: «نَحْتَفِلُ اليَوْمَ بِمِهْرَجانِ الحَصادِ وبِزَواجي مِنْ رَبَّةِ عَمَلِكُمْ. وبِهٰذِهِ المُناسَبَةِ أُقَدِّمُ لَكُمْ هٰذا الشَّرابَ الفاخِرَ...»

قاطَعَتْهُ شِيبا قائِلَةً: «تَمَهَّلْ! ذٰلِكَ سَيَضُرُّ بِهِمْ!» فَأجابَها ترُوْي بِازْدِراءٍ: «بَلْ سَنَفْعَلُ ما نَشاءُ! سَنُرْسِلُ النِّساءَ إلى بُيوتِهِنَّ ونَشْرَبُ عَلى هَوانا!» أحَسَّتْ شِيبا عِنْدَها بِالإهانَةِ، فَغادَرَتِ المَكانَ، وتَبِعَتْها النِّسْوَةُ وأوْلادُهُنَّ. أمّا غبريال فَقَدْ تَوَجَّهَ إلى أكْداسِ الحُبوبِ يَعْمَلُ وَحْدَهُ جاهِدًا بِهَدَفِ تَغْطِيَتِها قَبْلَ هُطولِ المَطَرِ.

العاصِفَة

فيما كانَ غبريال مُنْهَمِكًا في عَمَلِهِ، وقَدْ عَلا أحَدَ أكْداسِ الحَصيدِ، رَأى وَميضَ البَرْقِ الأزْرَقِ يَلْمَعُ حَوْلَهُ وتَبِعَ ذٰلِكَ صَوْتُ رَعْدٍ مُفَرْقِعٌ. ولَمَحَ، عَلى ضَوْءِ البَرْقِ المُتَتالي، هَيْئَةَ شَخْصٍ تَلَفَّعَ بِوِشاحٍ. إنَّها شِيبا!

اِقْتَرَبَتْ مِنْهُ وهَتَفَتْ: «آهٍ يا غبريال! لَقَدِ انْتابَني القَلَقُ عَلى وَضْعِ الحَصيدِ. سَيُصيبُني الإفْلاسُ إذا تَلِفَتِ الحُبوبُ. لَقَدْ بَحَثْتُ عَنْ زَوْجي ولَمْ أجِدْهُ.» أجابَها غبريال: «إنَّهُ نائِمٌ في المَخْزَنِ الكَبيرِ مَعَ بَقِيَّةِ المُحْتَفِلينَ!» فَقالَتْ: «إذًا، سَأُساعِدُكَ قَدْرَ اسْتِطاعَتي. سَأفْعَلُ ما تَطْلُبُهُ مِنّي.»

أَمْضَتْ شِيبا وَقْتًا تُساعِدُ غبريال بِكُلِّ قُوَّتِها . ثُمَّ اشْتَدَّ البَرْقُ ونَزَلَتْ صاعِقَةٌ في مَوْضِعٍ قَريبٍ. فَالْتَجأَ الِاثْنانِ إلى حَظيرَةٍ. وهُناكَ، في الظَّلامِ، قالَتْ شِيبا بِحَرارَةٍ وصِدْقٍ: «يا غبريال، أنا لَمْ أَذْهَبْ إلى باث لِأَتَزَوَّجَ مِنْ تروْي، بَلْ لِأَقْطعَ صِلَتي بِهِ. لٰكِنّي، مَعَ ذٰلِكَ، وفي لَحْظَةِ طَيْشٍ، تَزَوَّجْتُهُ. أُريدُكَ أَنْ تَعْرِفَ ذٰلِكَ!»

عَزَمَتْ شِيبا عَلى مُتابَعَةِ مُساعَدَتِها لِغبريال في عَمَلِهِ. ولٰكِنَّهُ رَأى أَنَّها مُتْعَبَةٌ، فَأَصَرَّ عَلى أَنْ تَعودَ إلى البَيْتِ وتَرْتاحَ، وقالَ لَها: «لَقَدْ أَبْلَيْتِ بَلاءً حَسَنًا». فَأَجابَتْهُ بِرِقَّةٍ: «وأَنْتَ كَذٰلِكَ. إنَّني عاجِزَةٌ عَنْ شُكْرِكَ عَلى ما تَقومُ بِهِ بِدافِعِ إخْلاصِكَ لي.. لَيْلَةً سَعيدَةً.»

أَكْمَلَ غبريال مُهِمَّتَهُ وَحيدًا. وقُبَيْلَ بُزوغِ الفَجْرِ، كانَ يَعْمَلُ عَلى تَغْطِيَةِ آخِرِ كُومَةٍ مِنْ كُوَمِ الحَصيدِ. ثُمَّ هَطَلَتِ الأَمْطارُ، فَتَبَلَّلَ لٰكِنَّهُ أَكْمَلَ عَمَلَهُ حَتّى النِّهايَةِ. وقَدْ خَطَرَ بِبالِهِ كَيْفَ أَنَّهُ، قَبْلَ ثَمانِيَةِ أَشْهُرٍ كانَ يُكافِحُ النّارَ في ذٰلِكَ المَكانِ بِالذّاتِ، وها هُوَ اليَوْمَ يَخوضُ مَعْرَكَتَهُ ضِدَّ الماءِ، وكُلُّ ذٰلِكَ بِسَبَبِ حُبِّهِ العَقيمِ لِشِيبا.

اِلْتَقى غبريال، في طَريقِ عَوْدَتِهِ إلى بَيْتِهِ، بِالسَّيِّدِ بولْدوُود. وعَلِمَ مِنْهُ أَنَّ أَكْوامَ الحَصيدِ في مَزْرَعَتِهِ لَمْ تَكُنْ مُغَطّاةً، وأَنَّهُ خَسِرَ تَقْريبًا كُلَّ جَنى المَوْسِمِ. وأَضافَ بولْدوُود: «أَنْتَ تَعْلَمُ يا غبريال أَنَّ الظُّروفَ تُعاكِسُني في المُدَّةِ الأَخيرَةِ!»

أَجابَ غبريال: «أَجَلْ. لَقَدْ كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّكَ والآنِسَةَ شِيبا سَتَتَزَوَّجانِ». فَتَنَهَّدَ بولْدوُود عَميقًا، مُظْهِرًا كَوامِنَ نَفْسِهِ المُنْهارَةِ، وقالَ: «إنَّني، إنْسانٌ ضَعيفٌ وأَحْمَقُ. لَقَدْ ظُلِمْتُ ونِلْتُ أَكْثَرَ مِمّا يُمْكِنُني تَحَمُّلُهُ، وصِرْتُ أَتَمَنّى المَوْتَ!»

تروْي يَلْتَقي بِفاني

ساءَتِ العَلاقَةُ بَيْنَ شِيبا وتروْي. وكانَ تروْي يُقامِرُ ويَعْبَثُ، فَصُرِفَ مِنَ الخِدْمَةِ لِسُوءِ مَسْلَكِهِ، وراحَ يَقْضي أَيّامَهُ في حَياةِ البَذْخِ على حِسابِ شِيبا.

كانَتْ شِيبا وزَوْجُها، مَساءَ أحَدِ أيامِ تِشْرينَ الأوَّلِ (أكتوبر)، في عَرَبَتِهِما على الطَّريقِ العامِّ المُؤَدّي إلى كاسْتَرْبرِدْج، فَاسْتَوْقَفَتْهُما امْرَأَةٌ فَقيرَةٌ لَمْ تَظْهَرْ مَلامِحُها بِسَبَبِ الظَّلامِ. تَجاوَزَ تْرُوْي المَرْأَةَ، ثُمَّ أَوْقَفَ العَرَبَةَ وتَرَجَّلَ مُتَّجِهًا إلَيْها.

سَمِعَتْ شِيبا المَرْأَةَ تَقولُ: «أَرْجوكَ، يا سَيِّدي، هَلْ تَعْرِفُ في أيِّ ساعَةٍ تُغْلَقُ أبْوابُ المَأْوى العُمومِيِّ في كاسْتَرْبرِدْج؟»

ذُهِلَ تْرُوْي عِنْدَما رَأى المَرْأَةَ عَنْ كَثَبٍ. واسْتَدارَ نَحْوَ العَرَبَةِ طالِبًا مِنْ شِيبا أنْ تَصْعَدَ بِالعَرَبَةِ إلى أعْلى التَّلِّ، حَيْثُ سَيَلْحَقُ بِها بَعْدَ قَليلٍ.

إلْتَفَتَ تروْي إلى المَرْأةِ قائِلًا : «أيْنَ كُنْتِ يا فاني؟ لَقَدْ خِلْتُكِ في أرْضٍ قَصِيَّةٍ! لِماذا لَمْ تَكْتُبي لي؟ هَلْ تَمْلِكينَ مالًا؟»

– لا أمْلِكُ فَلْسًا!

– ماذا تَقولينَ؟ خُذي هٰذا المَبْلَغَ الآنَ. باتي اللَّيْلَةَ في المَأْوى العُمومِيِّ، وغَدًا سَأَتَدَبَّرُ مَكانًا تُقيمينَ فيهِ. سَأَلْقاكِ في العاشِرَةِ قَبْلَ الظُّهْرِ، عِنْدَ جِسْرِ غراي، خارِجَ البَلْدَةِ، وسَأُحْضِرُ لَكِ مَعي مالًا.

هُرِعَ تروْي، بَعْدَ ذٰلِكَ، في إثْرِ زَوْجَتِهِ. فَسَأَلَتْهُ:

– هَلْ تَعْرِفُ تِلْكَ المَرْأةَ؟

- إنّني أعْرِفُها، ولٰكِنْ أجْهَلُ اسْمَها.

- أنا أرَى أنَّكَ تَكْذِبُ!

- تَفَوَّهي بِما يَحْلو لَكِ، فرَأْيُكِ لا يُهِمُّني.

ماذا حَلَّ بِفاني؟

في صَباحِ اليَوْمِ التّالي، طَلَبَ ترُوْي مِن شِيبا مَبْلَغَ عِشْرينَ جُنَيْهًا، فَأجابَتْهُ: «إنَّكَ تُريدُ المالَ لِلمُراهَنَةِ في سِباقِ الخَيْلِ! ألا تُقْلِعُ عَنْ هٰذِهِ العادَةِ يا فرانْك؟»

فَأجابَ: «لا، لَيْسَ المالُ لِلمُراهَنَةِ. وأنا بِحاجَةٍ إلَيْهِ الآنَ». وأخْرَجَ ساعَةَ الجَيْبِ وفَتَحَها لِيَنْظُرَ إلَيْها، فَظَهَرتْ بِداخِلِها خُصْلَةُ شَعْرٍ. وما إنْ رَأَتْها شِيبا حَتّى صاحَتْ: «إنَّها خُصْلَةُ شَعْرِ امْرَأةٍ! مِنْ شَعْرِ مَنْ هِيَ؟»

فَأجابَها: «إنَّها خُصْلَةُ شَعْرِكِ أنْتِ بِالطَّبْعِ!»

- أنْتَ كَذّابٌ. هٰذا الشَّعْرُ لَوْنُهُ فاتِحٌ، وأنا شَعْري أسْوَدُ!

- حَسَنًا، سَأُخْبِرُكِ. إنَّها مِن شَعْرِ فَتاةٍ كُنْتُ سَأتَزَوَّجُها قَبْلَ أنْ ألْتَقِيَ بِكِ.

- مَنْ هِيَ؟ وهَلْ هِيَ جَميلَةٌ؟

- لا تَكوني حَمْقاءَ وغَيورَةً. إذا كُنْتِ نادِمَةً عَلى زَواجِنا، فَأنا كَذٰلِكَ نادِمٌ.

ثُمَّ غادَرَ البَيْتَ تارِكًا شِيبا في غَمْرَةٍ مِنَ التَّحَسُّرِ عَلى كَرامَتِها الضّائِعَةِ والنَّدَمِ عَلى القَبولِ بِهِ زَوْجًا. وعِنْدَ الظَّهيرَةِ جاءَ جوزف پوزْغراس وأخْبَرَها أنَّ فاني روبن قَدْ تُوُفِّيَتْ في المَأْوى العُمومِيِّ، فَكانَ لِذٰلِكَ وَقْعٌ شَديدٌ عَلَيْها.

طَلَبَتْ شِيبا مِنْ جوزف أنْ يُجَهِّزَ عَرَبَةً ويَمْلَأَها بِالأزْهارِ وأوْراقِ الشَّجَرِ الخَضْراءِ، وأنْ يُوْصِيَ عَلى تابوتٍ يَكونُ في المَأْوى العُمومِيِّ في السّاعَةِ الثّالِثَةِ.

ثُمَّ سَأَلَتْهُ: «مُنْذُ مَتى كانَتْ هُناكَ؟»، فَأَجابَ: «يُقالُ إنَّها لَمْ تَمْكُثْ هُناكَ سِوى يَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ. لَقَدْ وَصَلَتْ إلى المَأْوى صَباحَ الأَحَدِ بَعْدَ سَيْرِها عَلى قَدَمَيْها كُلَّ الطَّريقِ العامِّ مِن ملشستر.»

أَحَسَّتْ شِيبا بِأَنَّهُ كادَ يُغْمَى عَلَيْها، ودَخَلَتْ إلى البَيْتِ، وقَدِ ابْيَضَّ وَجْهُها وذَهَبَ لَوْنُهُ. ثُمَّ جَلَسَتْ والْتَقَطَتْ أَنْفاسَها ونادَتْ ليديا لِتُخْبِرَها الخَبَرَ المَشْؤومَ.

كانَتْ بَعْضُ التَّفاصيلِ تَشْغَلُ بالَ شِيبا، فَسَأَلَتْ ليديا:

- ما كانَ لَوْنُ شَعْرِ فاني؟
- كانَ أَشْقَرَ فاتِحًا بَديعًا.
- هَلْ كانَ صَديقُها جُنْدِيًّا؟
- أَجَلْ، ومِنَ الفِرْقَةِ نَفْسِها الّتي كانَ السَّيِّدُ تْرُوْي في عِدادِها.

مِن المَأْوى إلى مَنْزِل شِيبا

كانَتِ السّاعَةُ في المَأْوى العُموميِّ تَدُقُّ في الثّالِثَةِ بَعْدَ الظُّهْرِ حينَ أَوْقَفَ جوزف

بورْغراس العَرَبَةَ المُزَيَّنَةَ بِالأَزْهارِ أَمامَ أَحَدِ الأَبْوابِ الجانِبِيَّةِ. فُتِحَ البابُ وأُخْرِجَ مِنْهُ تابوتٌ خَشَبِيٌّ بَسيطٌ، ووُضِعَ عَلى العَرَبَةِ. ثُمَّ سُلِّمَتْ وَثيقَةُ الوَفاةِ الرَّسْمِيَّةُ لِجوزف، وكُتِبَ الاسْمُ بِالطَّباشيرِ عَلى التّابوتِ، وقادَ جوزف العَرَبَةَ.

أَخَّرَ الضَّبابُ والمَطَرُ مَسيرَةَ جوزف. وقَبْلَ الوُصولِ إلى وِذَرْبوري، مَرَّ بِالبَلْدَةِ فَتَوَقَّفَ قُرْبَ الحانَةِ ودَخَلَ لِيَحْتَسِيَ كَأْسَ شَرابٍ وتَناسى أَمْرَ العَرَبَةِ، فَطالَ مُكوثُهُ. وبَعْدَ انْتِظارٍ طَويلٍ طَلَبَتْ شِيبا مِنْ غبريال الذَّهابَ لِاسْتِطْلاعِ الأَمْرِ. فَتَوَجَّهَ إلى البَلْدَةِ، ولَمّا رَأى العَرَبَةَ خارِجَ الحانَةِ أَدْرَكَ ما فَعَلَهُ جوزف فَرَكِبَ العَرَبَةَ وقادَها بِنَفْسِهِ.

في وِذَرْبوري، أَفادَ الكاهِنُ أَنَّهُ لا يُمْكِنُ إجْراءُ مَراسِمِ الجِنازَةِ في تِلْكَ السّاعَةِ المُتَأَخِّرَةِ مِنَ المَساءِ، بِالإضافَةِ إلى وُجوبِ إحْضارِ وَثيقَةِ الوَفاةِ الرَّسْمِيَّةِ الّتي كانَتْ لا تَزالُ مَعَ جوزف، فَاقْتَرَحَ إرْسالَ التّابوتِ إلى الكَنيسَةِ وحِفْظَهُ حَتّى الصَّباحِ.

أَصَرَّتْ شِيبا عَلى إبْقاءِ التّابوتِ في مَنْزِلِها حَتّى الصَّباحِ. وعِنْدَما دَخَلَ غبريال قَرَأَ عَلى غِطائِهِ: «فاني روبن وطِفْلها». فَاسْتَغْرَبَ الأَمْرَ، لٰكِنَّهُ تَصَرَّفَ بِسُرْعَةٍ قَبْلَ دُخولِ شِيبا فَمَحا عِبارَةَ «وطِفْلها» وَأبْقى اسْمَ فاني روبن وَحْدَهُ.

سَهِرَتْ شِيبا تِلْكَ اللَّيْلَةَ، عَلى ضَوْءِ الشَّمْعَةِ، أمامَ التّابوتِ. وقَدْ دَقَّت ليديا البابَ بِهُدوءٍ ودَخَلَتِ الغُرْفَةَ، وقالَتْ لِشِيبا: «يَجِبُ أَنْ تَعْرِفي، يا آنِسَةُ إفْرْدين، أَنَّ الأَلْسُنَ تَدورُ بِقِصَّةٍ غَريبَةٍ إذْ يُقالُ إنَّ فاني تُوُفِّيَتْ وهِيَ تَلِدُ.»

أَحَسَّت شِيبا بِقُشَعْريرَةٍ رَهيبَةٍ تَسْري مِنْ قِمَّةِ رَأْسِها حَتّى أَخْمَصَيْها، وعَلَّقَتْ قائِلَةً: «غَيْرُ مَعْقولٍ! لَيْسَ عَلى التّابوتِ سِوى اسْمٍ واحِدٍ.»

وتَمْتَمَتْ ليديا بِحُزْنٍ: «وأَنا كَذٰلِكَ لا أُصَدِّقُ هٰذا الأَمْرَ»، وانْصَرَفَتْ.

ظَلَّتْ شِيبا أَمامَ التّابوتِ وَحْدَها، تَنْتابُها الهَواجِسُ. وأَخيرًا قالَتْ: «سَأَتَأَكَّدُ مِنَ الأَمْرِ!» ثُمَّ تَقَدَّمَتْ نَحْوَ التّابوتِ بِعَزْمٍ وتَصْميمٍ، وفَكَّتْ بَراغِيَّ الغِطاءِ. عِنْدَما نَظَرَتْ إلى الدّاخِلِ رَأَتْ وَجْهَ فاني المُحاطَ بِشَعْرِها الأَشْقَرِ، وكانَ إلى جانِبِها جُثَّةٌ صَغيرَةٌ مَلْفوفَةٌ بِقِطْعَةِ قُماشٍ. فَصَدَرَتْ عَنْها شَهْقَةٌ أَشْبَهُ بِالعَويلِ، وانْهَمَرَتِ الدُّموعُ الحارَّةُ داخِلَ التّابوتِ إلى جانِبِ الجُثَّتَيْنِ. لَقَدِ انْكَشَفَتْ أَمامَها الحَقيقَةُ المُرَوِّعَةُ!

عَجَّتْ بِقَلْبِ شِيبا مَشاعِرُ الأَلَمِ والمَرارَةِ والغَيْرَةِ، ولٰكِنَّها تَمالَكَتْ نَفْسَها ورَكَعَتْ قُرْبَ التّابوتِ المَفْتوحِ وأَخَذَتْ تُصَلّي. ثُمَّ نَثَرَتْ بَعْضَ الأَزْهارِ حَوْلَ جُثْمانِ فاني، وعادَتْ إلى الرُّكوعِ بِلا حَراكٍ كَأَنَّها في شِبْهِ غَيْبوبَةٍ.

بَعْدَ فَتْرَةٍ، تَنَبَّهَتْ شِيبا إلى صَوْتِ صَفْقِ البابِ، واسْتَدارَتْ فَرَأَتْ تْرُوْي. دَخَلَ الغُرْفَةَ مُسْتَغْرِبًا ذٰلِكَ المَنْظَرَ، وتَساءَلَ مَشْدوهًا: «ماذا حَدَثَ؟ مَنْ تُوُفِّيَ؟» وتَناوَلَ شَمْعَةً واقْتَرَبَ مِنَ التّابوتِ. وإذْ رَأى ما بِداخِلِهِ كادَتِ الغُصَّةُ تَخْنُقُهُ.

خَرَّ تْرُوْي راكِعًا، وقَدْ أَحَسَّ، لِلمَرَّةِ الأُولى في حَياتِهِ، بِالنَّدَمِ والأَلَمِ. ثُمَّ انْحَنى فَوْقَ الجُثْمانِ وقَبَّلَ جَبينَ فاني البارِدَ بِكُلِّ ما أُوتِيَ مِنْ رِقَّةٍ وحَنانٍ.

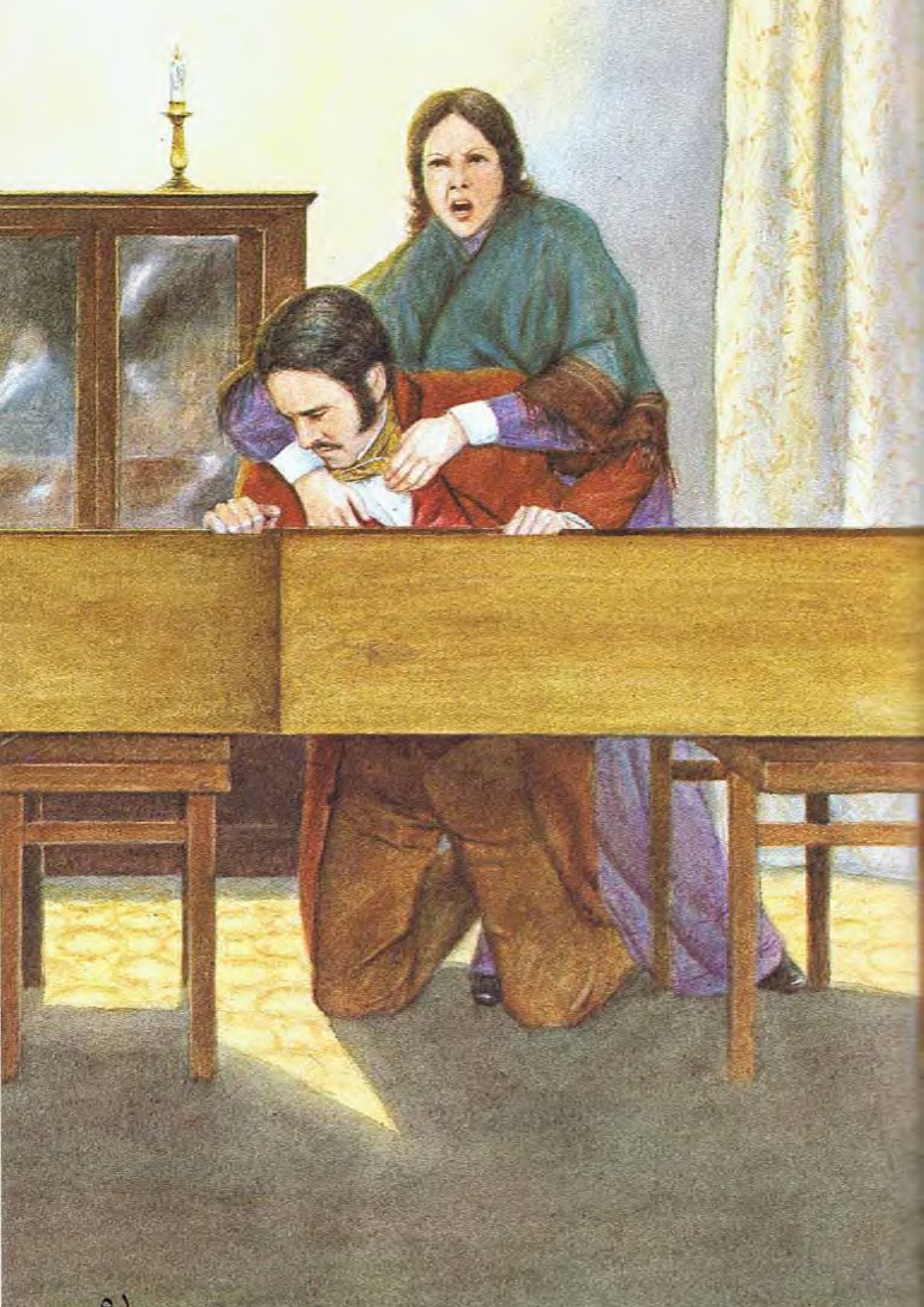

ثُمَّ الْتَفَتَ إلى شِيبا، وقالَ: «أنا أَحْبَبْتُها هِيَ! أَنْتِ لا تَعْنينَ لي شَيْئًا!» فَأَحَسَّتْ بِالاضْطِرابِ والذُّهولِ، وخَرَجَتْ في دُجى اللَّيْلِ هائِمَةً عَلى وَجْهِها.

ترُوْي يُكَفِّرُ عَن ذُنوبِه

كانَتْ تِلْكَ اللَّيْلَةُ ماطِرَةً بارِدَةً، فَتَبَلَّلَتْ شِيبا بِالماءِ واخْتَرَقَ البَرْدُ عِظامَها. لِذٰلِكَ انْهارَتْ ووَقَعَتْ في قَناةٍ بِجانِبِ الطَّريقِ. وقَدْ وَجَدَتْها ليديا في الصَّباحِ الباكِرِ وحَمَلَتْها إلى البَيْتِ. أَمّا ترُوْي، فَقَدْ تَمالَكَ نَفْسَهُ، وحَضَرَ جِنازَةَ فاني البَسيطَةَ. وتَوَجَّهَ بَعْدَ ذٰلِكَ مُباشَرَةً إلى كاسْتَرْبِردْج، واشْتَرى قِطْعَةَ بَلاطٍ فاخِرَةً، وأَوْصى بِالحَفْرِ عَلَيْها وإقامَتِها - قَبْلَ المَساءِ - شاهِدًا عَلى قَبْرِ فاني.

وبِالفِعْلِ، أَنْهى العُمّالُ مُهِمَّتَهُمْ عِنْدَ القَبْرِ في المَساءِ. وفي العاشِرَةِ مِنْ تِلْكَ اللَّيْلَةِ دَخَلَ ترُوْي المَقْبَرَةَ حامِلًا مِصْباحًا بِيَدٍ وسَلَّةَ غَرَساتٍ بِاليَدِ الأُخْرى. وأَخَذَ يَغْرِسُ النَّباتاتِ حَوْلَ القَبْرِ. وبِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ السَّماءَ أَخَذَتْ تُمْطِرُ فَإِنَّهُ لَمْ يَتَوَقَّفْ عَنْ عَمَلِهِ حَتّى أَكْمَلَهُ. وغادَرَ المَكانَ يائِسًا مَغْلوبًا عَلى أَمْرِهِ.

ويَبْدو أَنَّ سُوءَ الحَظِّ ظَلَّ يُلاحِقُ فاني إلى القَبْرِ. إذْ كانَ قَبْرُها يَقَعُ مُباشَرَةً تَحْتَ مِيزابٍ ناتِئٍ مِنْ جانِبِ سَطْحِ الكَنيسَةِ لِتَصْريفِ مِياهِ الأَمْطارِ. وقَدِ اسْتَمَرَّ هُطولُ المَطَرِ طَوالَ تِلْكَ اللَّيْلَةِ وتَدَفَّقَ الماءُ بِغَزارَةٍ مِنَ المِيزابِ، فَاقْتُلِعَتِ النَّباتاتُ الَّتي زَرَعَها ترُوْي وتَبَعْثَرَتْ بَيْنَ التُّرابِ، وتَلَطَّخَ الشّاهِدُ الجَديدُ بِالوَحْلِ.

قَبْلَ ظُهْرِ ذٰلِكَ اليَوْمِ، جاءَتْ شِيبا مَعَ غبريال إلى المَقْبَرَةِ لِزِيارَةِ قَبْرِ فاني. وقَدْ فُوجِئَ الاثْنانِ بِآثارِ العاصِفَةِ. ولٰكِنْ ما أَثارَ اسْتِغْرابَهُما حَقًّا هُوَ وُجودُ شاهِدٍ مُقامٍ عَلى القَبْرِ، وقَدْ تَلَطَّخَ بِالوَحْلِ. نَظَّفا الشّاهِدَ وقَرَآ ما نُقِشَ عَلَيْهِ:

أَقامَ هٰذا الشّاهِدَ فرانسِس ترُوْي

تَخْليدًا لِذِكْرى الحَبيبَةِ

فاني روبن

الَّتي تُوُفِّيَتْ في ١٨ تِشْرين الأَوَّل (أكتوبر)... عَنْ عِشْرينَ سَنَةً.

قَرَأَتْ شِيبا ذٰلِكَ بِصَمْتٍ، ثُمَّ أَخَذَتْ تُلَمْلِمُ ما اسْتَطاعَتْ لَمْلَمَتَهُ مِنَ النَّباتِ

وتَغْرِسُها حَوْلَ القَبْرِ. وطَلَبَتْ مِنْ غبريال أَنْ يَلْفِتَ نَظَرَ القَيِّمينَ عَلى المَدْفَنِ إلى ضَرورَةِ تَغْييرِ مَكانِ الميزابِ لإبْعادِ مائِهِ عَنْ قَبْرِ فاني.

إتَّجَهَ ترُوْي ناحِيَةَ الجَنوبِ مُبْتَعِدًا - قَدْرَ الإمْكانِ - عَنْ وِذَرْبوري مَسْرَحِ ذِكْرَياتِهِ المُحْزِنَةِ. ولَمّا وَصَلَ إلى السّاحِلِ انْتَعَشَ بِرُؤْيَةِ البَحْرِ، فَتَوَجَّهَ إلى الشّاطِئِ، وخَلَعَ ثِيابَهُ ووَضَعَها في كُومَةٍ واحِدَةٍ. ثُمَّ رَكَضَ إلى الماءِ وغَطَسَ تَحْتَ الأَمْواجِ. وقَدْ فُوجِئَ، وهُوَ يَسْبَحُ، بِتَيّارٍ قَوِيٍّ يَسْحَبُهُ مَعَهُ إلى داخِلِ البَحْرِ. حاوَلَ مُقاوَمَتَهُ فَلَمْ يَسْتَطِعْ، لٰكِنَّهُ كانَ مَحْظوظًا، إذْ صَدَفَ مُرورُ مَرْكَبٍ صَغيرٍ فانْتَشَلَهُ مَلّاحوهُ.

الرَّجُل المَفْقود

لَمْ تَقْلَقْ شِيبا بادِئَ الأَمْرِ لِغِيابِ ترُوْي. وبَعْدَ مُدَّةٍ سَمِعَتْ شائِعاتٍ تَقولُ إنَّ زَوْجَها قَدْ غَرِقَ في البَحْرِ. وأُفيدَ أَنَّ طَبيبًا في المِنْطَقَةِ الجَنوبِيَّةِ لَمَحَهُ يَنْجَرِفُ مَعَ التَّيّارِ، وَوُجِدَتْ ثِيابُهُ عَلى الشّاطِئِ ومَعَها ساعَتُهُ وخُصْلَةُ شَعْرِ فاني.

مَرَّتْ سَنَةٌ، ولَمْ يَعُدْ ترُوْي. فَلَبِسَتْ شِيبا ثِيابَ الحِدادِ، وانْتَعَشَتْ آمالُ بولْدُوود واسْتَيْقَظَتْ أَحْلامُهُ السّابِقَةُ بِالزَّواجِ مِنْها. لٰكِنْ لا يُعْتَبَرُ «المَفْقودُ» مَيْتًا رَسْمِيًّا إلّا بَعْدَ سَبْعِ سَنَواتٍ مِنِ اخْتِفائِهِ، فَتَسْتَطيعُ «أَرْمَلَتُهُ» أَنْ تَتَزَوَّجَ ثانِيَةً. وبولْدُوود عَلى اسْتِعْدادٍ لِلانْتِظارِ.

إسْتَمَرَّتِ الحَياةُ في المَزْرَعَةِ كَالمُعْتادِ، ورُقِّيَ غبريال إلى مَرْكَزِ وَكيلِ المَزْرَعَةِ. وكانَ أَيْضًا - بِمُوافَقَةِ شِيبا - يَقومُ بِمُساعَدَةِ بولْدُوود في إدارَةِ مَزْرَعَتِهِ الّتي مُنِحَ حِصَّةً فيها كَشَريكٍ. فَتَحَسَّنَ وَضْعُهُ المالِيُّ والاجْتِماعِيُّ لٰكِنَّهُ ظَلَّ عَلى تَواضُعِهِ.

حيرَة شِيبا

والواقِعُ أَنَّ ترُوْي كانَ لا يَزالُ حَيًّا. وقَدْ كانَ سام بِنيويز، وَكيلُ المَزْرَعَةِ المَطْرودُ، يُشاهِدُ، ذاتَ يَوْمٍ، عَرْضًا أَقامَتْهُ فِرْقَةٌ اسْتِعْراضِيَّةٌ مُتَجَوِّلَةٌ، ورَأى أَحَدَ أَعْضاءِ الفِرْقَةِ يَشْتَرِكُ في أَلْعابٍ بَهْلَوانِيَّةٍ خَطِرَةٍ، وعَرَفَ أَنَّهُ ترُوْي بِالرَّغْمِ مِنْ تَنَكُّرِهِ. عَلِمَ ترُوْي، مِنْ عَيْنَيْ بِنيويز، أَنَّهُ عَرَفَهُ، فَواجَهَهُ وهَدَّدَهُ، وأَقْنَعَهُ بِإبْقاءِ الأَمْرِ سِرًّا.

ظَلَّ بولْدوُود يَتَرَدَّدُ إلى شِيبا عَلى أَمَلٍ أَنْ تُوافِقَ عَلى الزَّواجِ بِهِ بَعْدَ انْقِضاءِ السَّنَواتِ السِّتِّ. قالَ لَها مَرَّةً: «تَعْلَمينَ أَنَّني لا يُمْكِنُ أَنْ أَعيشَ مِنْ دونِكِ.»

حارَتْ شِيبا في أَمْرِ الرَّجُلِ، وقَدْ أَحَسَّتْ بِطُولِ صَبْرِهِ وفَيْضِ عَذابِهِ، فَقالَتْ لَهُ: «أَعِدُكَ بِأَنَّني لَنْ أَتَزَوَّجَ رَجُلًا آخَرَ ما دُمْتَ أَنْتَ راغِبًا في الاقْتِرانِ بي. إِنَّني أَعِدُكَ بِهٰذا القَدْرِ الآنَ. سَأُفَكِّرُ بِالأَمْرِ، وقَدْ أَعِدُكَ بِالزَّواجِ في عيدِ الميلادِ.»

بَعْدَ أَيّامٍ أَخْبَرَتْ شِيبا غبريال بِما دارَ بَيْنَها وبَيْنَ بولْدوُود، فَقالَ غبريال: «ما مِنْ شَكٍّ في أَنَّ حَياةَ هٰذا المِسْكينِ هِيَ جَحيمٌ مِنْ دونِكِ. فَلِمَ لا تَعِدينَهُ بِالتَّزَوُّجِ مِنْهُ عِنْدَ نِهايَةِ السَّنَواتِ السِّتِّ، حَتّى ولَوْ لَمْ تَكوني تُحِبّينَهُ حُبًّا عَميقًا!»

أجابَتْ: «إنّني - بِالطَّبْعِ - لا أُحِبُّهُ. إنَّ الحُبَّ أَصْبَحَ لا يَعْني لي شَيْئًا. لَقَدْ خَبَتْ جُذْوَتُهُ مُنْذُ مُدَّةٍ طَويلَةٍ.» وعِنْدَما غادَرَ غبريال مِنْ دونِ تَعْليقٍ أَحَسَّتْ شِيبا بِغُصَّةٍ ومَرارَةٍ، لِأَنَّهُ لَمْ يُصَرِّحْ لَها بِحُبِّهِ ولَوْ مَرَّةً واحِدَةً.

مُفاجَأَة لَيْلَة عيد الميلاد

أقامَ السَّيِّدُ بولْدوُود، لَيْلَةَ الميلادِ، حَفْلَةً في مَنْزِلِهِ، حَرَصَ على أنْ تكونَ حَفْلَةً كُبْرى، فَبَذَلَ في سَبيلِها كُلَّ جَهْدِهِ ولَمْ يَبْخَلْ عَلَيْها بِالتَّكاليفِ المَطْلوبَةِ.

تَوافَدَ الضُّيوفُ جَماعاتٍ إلى مَنْزِلِ بولْدوُود ونُفوسُهُمْ عامِرَةٌ بِالفَرَحِ والبَهْجَةِ، وبَدَأوا بِالسَّمَرِ والرَّقْصِ. وقَدْ أَحَسَّتْ شِيبا أَنَّ كُلَّ هٰذا الاحْتِفالِ قَدْ أَقامَهُ بولْدوُود لَها وَحْدَها، وأَنَّهُ سَيُفاتِحُها بِالمَوْضوعِ إيّاهُ، فَقَرَّرَتْ - بَعْدَ ساعَةٍ - المُغادَرَةَ. رَآها بولْدوُود تَتَناوَلُ مِعْطَفَها، فَجاءَ إِلَيْها قائِلًا:

- أَتُغادِرينَ الآنَ، يا سَيِّدَةُ تروُي؟ إنَّنا في بِدايَةِ السَّهْرَةِ!

- إِسْمَحْ لي أَنْ أَذْهَبَ الآنَ، يَجِبُ أَنْ أعودَ إلى البَيْتِ.

- ولٰكِنَّني أَنْتَظِرُ هٰذِهِ اللَّحْظَةَ مُنْذُ مُدَّةٍ. سَتُعْطيني اللَّيْلَةَ وَعْدَكِ بِالزَّواجِ، أَلَيْسَ كَذٰلِكَ؟

سَيْطَرَ عَلى شِيبا القَلَقُ والتَّوَتُّرُ، ولَمْ تَرَ أَمامَها مَهْرَبًا أَوْ بابًا لِلتَّسْويفِ والمُماطَلَةِ، فَقالَتْ: «إذا لَمْ يَظْهَرْ زَوْجي سَأَتَزَوَّجُ مِنْكَ بَعْدَ سِتِّ سَنَواتٍ.» فَقالَ بولْدوُود بِفَرَحٍ وامْتِنانٍ: «إنَّني سَعيدٌ الآنَ!»

فيما كانَتْ شِيبا تَنْزِلُ السُّلَّمَ لِتُغادِرَ المَنْزِلَ، دَخَلَ أَحَدُ الخَدَمِ، وقالَ لَها: «هُناكَ رَجُلٌ غَريبٌ يَطْلُبُ رُؤْيَتَكِ، يا سَيِّدَتي.» بَعْدَ لَحْظَةٍ كانَ تروُي في الغُرْفَةِ.

عَرَفَتْهُ شِيبا فَوْرًا، فَارْتَمَتْ عَلى الدَّرَجاتِ في شِبْهِ إغْماءَةٍ. تَوَجَّهَ إلَيْها تْرُوي بِالكَلامِ: «شِيبا، لَقَدْ جِئْتُ مِنْ أَجْلِكِ. عَلَيْكِ أَنْ تَعودي مَعي إلى البَيْتِ الآنَ.»

كانَتِ المُفاجَأَةُ قَدْ عَقَدَتْ لِسانَ شِيبا وَشَلَّتْ حَرَكَتَها، فَظَلَّتْ ساكِتَةً ساكِنَةً. فَقالَ تْرُوي مُحْتَدًّا: «هَيّا يا امْرَأَةُ. أَلَمْ تَسْمَعي ما قُلْتُهُ؟!» ثُمَّ أَمْسَكَها بِيَدِها وَجَذَبَها بِعُنْفٍ، فَقاوَمَتْهُ وحاوَلَتِ الإفْلاتَ مِنْهُ، فَتَأَلَّمَتْ وأَخَذَتْ تَئِنُّ.

وهُنا دَوّى صَوْتٌ صاعِقٌ. فَقَدْ تَناوَلَ بولْدوُود بُنْدُقِيَّةً وأَطْلَقَ مِنْها النّارَ عَلى تْرُوي. ثُمَّ حاوَلَ أَنْ يَنْتَحِرَ بِالبُنْدُقِيَّةِ نَفْسِها، فَتَدَخَّلَ أَحَدُ الحاضِرينَ وانْتَزَعَها مِنْهُ. فَانْطَلَقَ خارِجًا مِنَ المَنْزِلِ، وهُوَ يُتَمْتِمُ: «هُناكَ طُرُقٌ أُخْرى لِلمَوْتِ!»

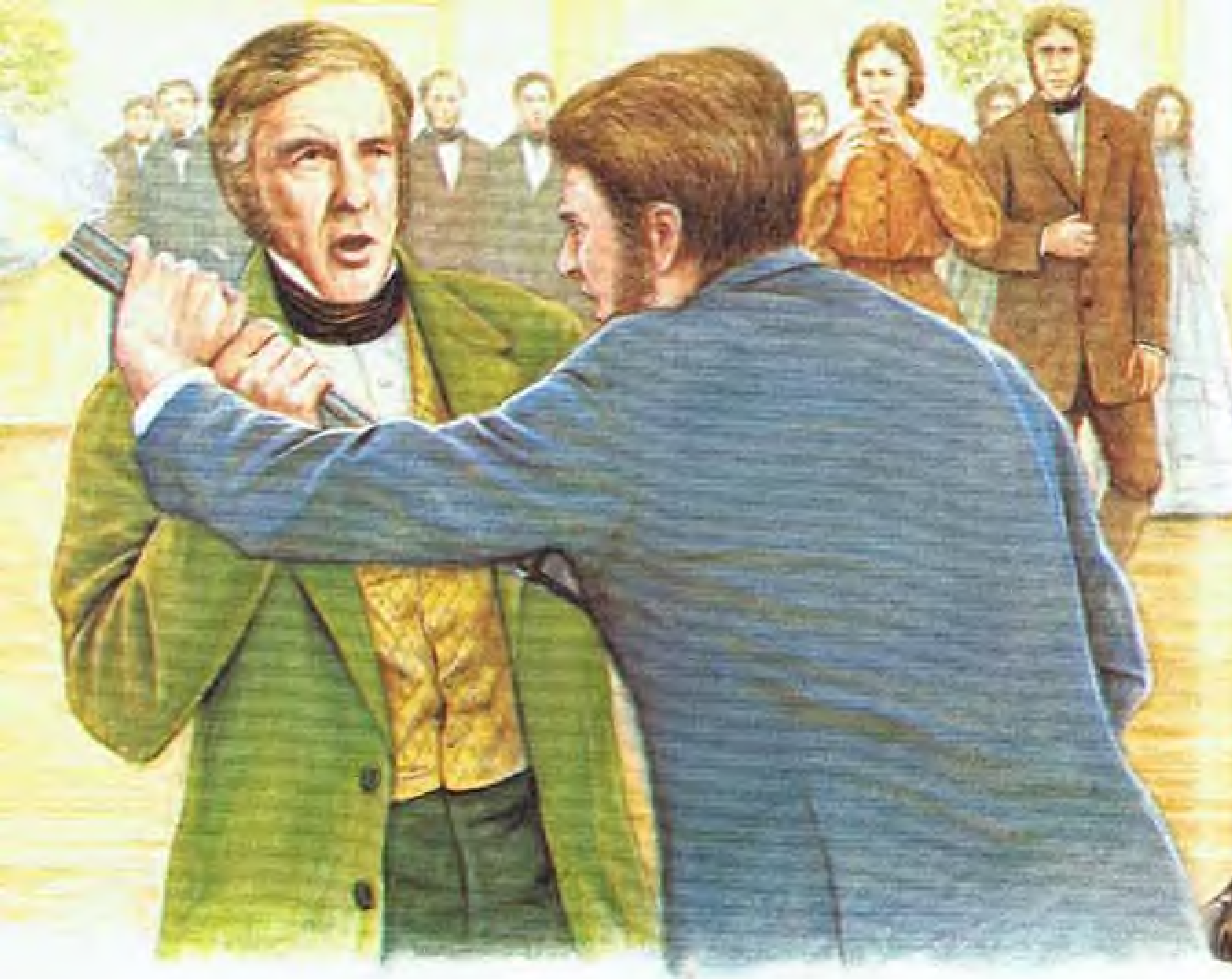

في هٰذِهِ الأَثْناءِ جَلَسَتْ شِيبا عَلى الأَرْضِ ووَضَعَتْ رَأْسَ زَوْجِها في حِضْنِها، وحاوَلَتْ أَنْ تُوقِفَ نَزْفَ الدَّمِ مِنْ صَدْرِهِ. ثُمَّ أَرْسَلَتْ غبريال لإحْضارِ الطَّبيبِ، مَعَ أَنَّها أَدْرَكَتْ أَنَّ الأَمَلَ بِنَجاةِ تْرُوي ضَئيلٌ جِدًّا. وبِالفِعْلِ كانَ تْرُوي قَدْ تُوُفِّيَ عِنْدَما وَصَلَ الطَّبيبُ. عِنْدَها انْهارَتْ شِيبا وارْتَمَتْ عَلى الأَرْضِ، وقَدْ تَلاشَتْ قُواها.

بَعْدَ خُروجِ بولْدوُود مِنْ مَنْزِلِهِ مَشى مُباشَرَةً نَحْوَ كاسْتَرْبرِدْج، حَيْثُ سَلَّمَ نَفْسَهُ لِلشُّرْطَةِ مُعْتَرِفًا بِفَعْلَتِهِ. ولَدى بِدايَةِ السَّنَةِ القَضائِيَّةِ التّالِيَةِ حُوكِمَ بِتُهْمَةِ القَتْلِ عَمْدًا، ووُجِدَ مُذْنِبًا، وحُكِمَ عَلَيْهِ بِالإعْدامِ. وقَدْ رَفَعَ أَبْناءُ المِنْطَقَةِ الْتِماسًا إلى وَزيرِ الدّاخِلِيَّةِ لِلرَّأْفَةِ بِهِ وتَخْفيفِ الحُكْمِ. فَاعْتُبِرَ أَنَّهُ كانَ في حالَةٍ مِنْ عَدَمِ الاتِّزانِ العَقْلِيِّ وَقْتَ تَنْفيذِ الجَريمَةِ فَخُفِّفَ الحُكْمُ مِنَ الإعْدامِ إلى السَّجْنِ المُؤَبَّدِ.

بِدايَة جَديدة

عِنْدَما جاءَ الرَّبيعُ، بَدَأَتْ شِيبا تَسْتَعيدُ عافِيَتَها، ولٰكِنَّها قَلَّما كانَتْ تَخْرُجُ مِنَ المَنْزِلِ. ومَعَ حُلولِ شَهْرِ آبٍ (أغسطس) تَشَجَّعَتْ عَلى الخُروجِ يَوْمًا، وأَخَذَتْ تَتَمَشَّى في القَرْيَةِ إلى أَنْ وَصَلَتْ باحَةَ الكَنيسَةِ، فَاتَّجَهَتْ إلى المَقْبَرَةِ ووَقَفَتْ أَمامَ قَبْرِ فاني. قَرَأَتِ الكَلامَ المَحْفورَ عَلى شاهِدِ القَبْرِ، ووَجَدَتْ، تَحْتَ الكَلامِ الّذي كُتِبَ أَصْلًا بَعْدَ مَوْتِ فاني، العِباراتِ التّالِيَةَ:

«وفي هٰذا القَبْرِ أَيْضًا دُفِنَ المَذْكورُ أَعْلاهُ:

فرانْسِس ترُوْي

الّذي تُوُفِّيَ في. . . عَنْ سِتٍّ وعِشْرينَ عامًا.»

اِنْهَمَرَتْ عِنْدَها الدُّموعُ مِنْ عَيْنَيْها، ولَمْ تُلاحِظْ وُقوفَ غبريال وَراءَها، وكانَ قَدْ خَرَجَ مِنَ الكَنيسَةِ لِتَوِّهِ. أَخَذَ غبريال يُواسيها، ثُمَّ رافَقَها حَتّى مَنْزِلِها. وقَدْ أَخْبَرَها أَنَّهُ يَنْوي تَرْكَ العَمَلِ لَدَيْها لِأَنَّهُ يُخَطِّطُ لِلهِجْرَةِ إلى أميركا. لَمْ تَقُلْ شِيبا شَيْئًا. لٰكِنَّها أَحَسَّتْ أَنَّها قَدْ خَسِرَتْ كُلَّ شَيْءٍ بِما في ذٰلِكَ حُبُّ غبريال وإخْلاصُهُ.

مَساءَ اليومِ التّالي لَبِسَتْ شِيبا مِعْطَفَها ومَشَتْ نَحْوَ كوخِ غبريال. ولَمّا قَرَعَتْ جاءَها ذٰلِكَ الصَّوْتُ الأَليفُ يَقولُ: «تَفَضَّلْ.» بَدَأَتْ شِيبا الكَلامَ بِسُؤالِ غبريال: «هَلْ أَنا السَّبَبُ؟ هَلْ أَسَأْتُ إِلَيْكَ، يا غبريال، حَتّى صَمَّمْتَ عَلى الرَّحيلِ؟»

فَأَجابَها: «إِنَّني أُفَكِّرُ بِمَسْأَلَةِ السَّفَرِ مُنْذُ مُدَّةٍ، لٰكِنَّني أَعَدْتُ النَّظَرَ، وقَرَّرْتُ أَنْ أَبْقى. سَأَشْتَري كامِلَ مَزْرَعَةِ السَّيِّدِ بولْدوود، وتَعْلَمينَ أَنَّني أَمْلِكُ حِصَّةً فيها أَصْلًا. وسَأَظَلُّ، مَعَ ذٰلِكَ، قادِرًا عَلى العَمَلِ لَدَيْكِ وإدارَةِ مَزْرَعَتِكِ.»

أَجابَتْ شِيبا: «هٰذا رائِعٌ! لَكَمْ يَسُرُّني أَنْ تَبْقى هُنا. والآنَ عَلَيَّ أَنْ أَرْحَلَ، لا يَليقُ بِفَتاةٍ شابَّةٍ أَنْ تَزورَ شابًّا عَزَبًا في مَنْزِلِهِ!» تَرَدَّدَ غبريال لَحَظاتٍ، ثُمَّ قالَ لَها: «شِيبا . . . هَلْ تَسْمَحينَ لي بِالتَّعْبيرِ عَنْ حُبّي لَكِ وأَمَلي بِالزَّواجِ مِنْكِ؟»

- وهَلْ تَشُكُّ في ذٰلِكَ يا غبريال؟

- آهِ يا عَزيزَتي شِيبا. إنَّكِ أَجْمَلُ ما في هٰذِهِ الدُّنْيا!

وهٰكَذا خَطَّطَ غبريال وشِيبا لِعَقْدِ قِرانِهِما في حَفْلٍ بَسيطٍ مُتَواضِعٍ.

وقَدْ تَمَّ ذٰلِكَ فِعْلًا بِكُلِّ هُدوءٍ، بِحُضورِ لابان تول وليديا فَقَطْ. وكَأَنَّ الطَّبيعَةَ قَدْ شارَكَتِ العَريسَيْنِ إرادَتَهُما، فَكانَ الجَوُّ، في ذٰلِكَ اليَوْمِ، رَطْبًا ضَبابِيًّا، مُلائِمًا لِلعُزْلَةِ والوَحْدَةِ الَّتي نَشَدَها غبريال وشِيبا.

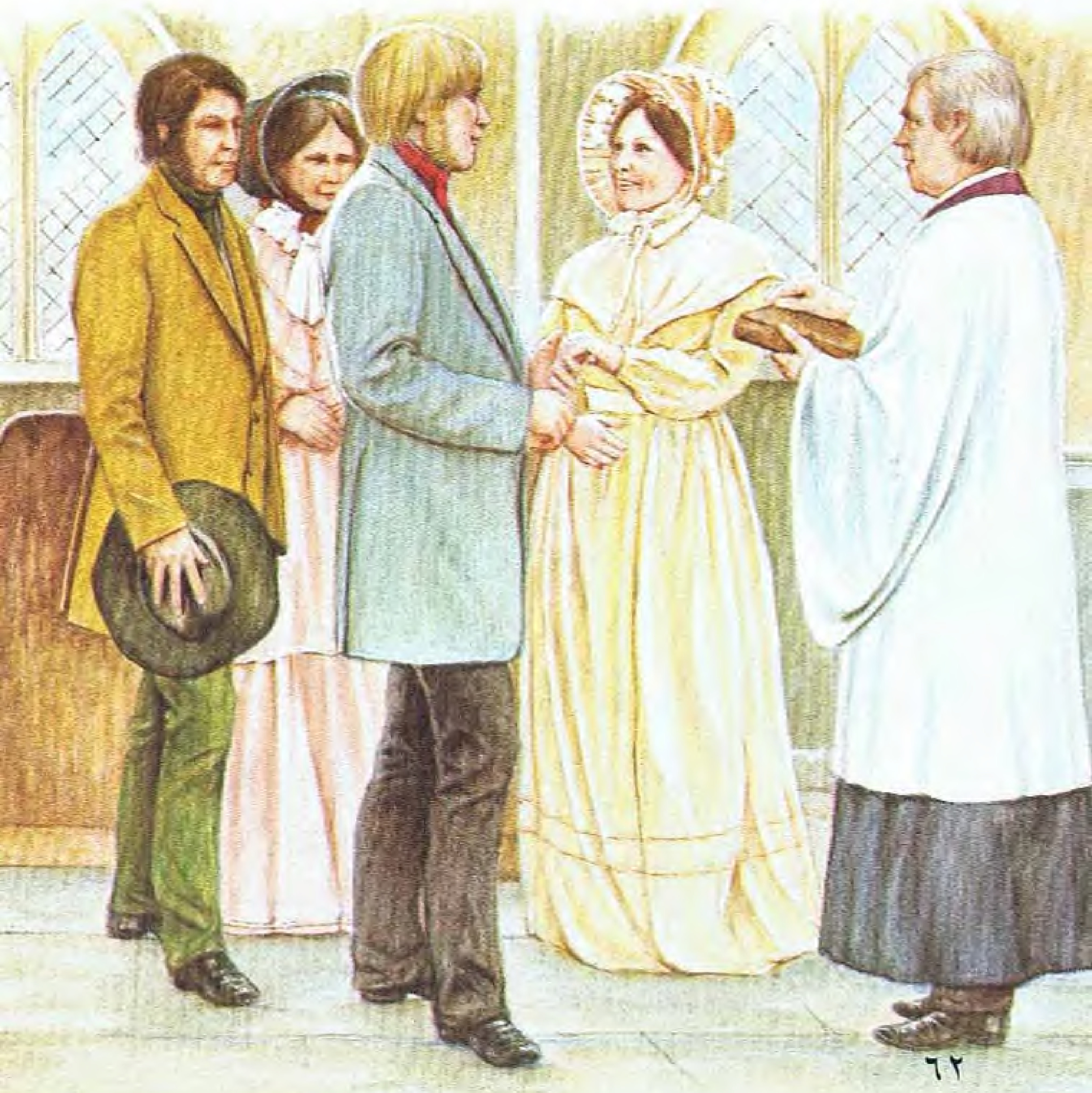

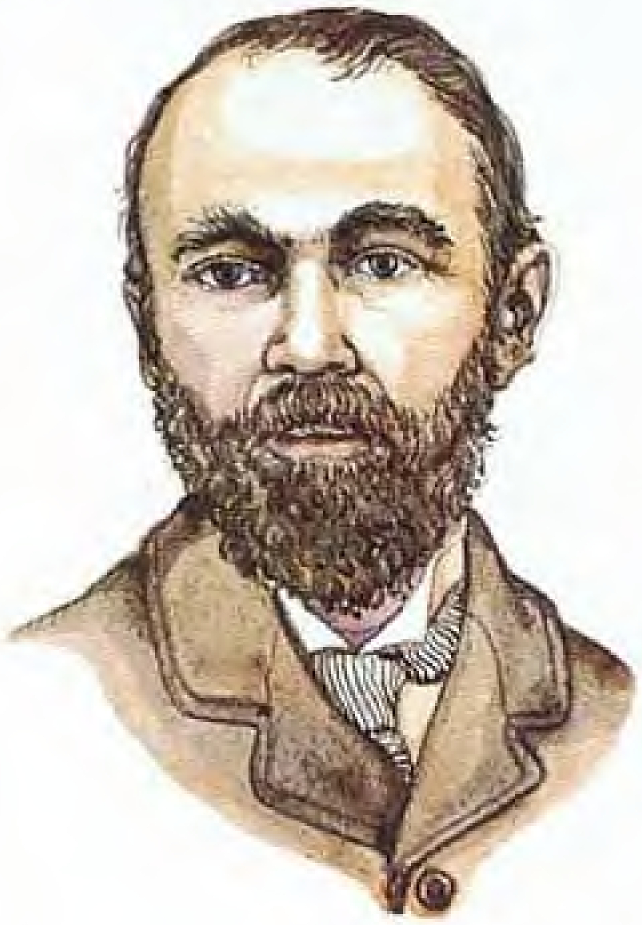

توماس هارْدي

وُلِدَ توماس هارْدي في قَرْيَةِ «بروكْهامْبتون» بِمُقاطَعَةِ «دورْسِت» في الثّاني مِنْ حَزيرانَ (يونيو) عامَ ١٨٤٠. كانَ لِوالِدَيْهِ تَأْثيرٌ مُباشِرٌ عَلى مَجْرى حَياتِهِ، فَبِوَحْيٍ مِنْ مِهْنَةِ والِدِهِ البَنّاءِ اتَّجَهَ إلى دِراسَةِ الهَنْدَسَةِ المِعْمارِيَّةِ. أَمّا والِدَتُهُ فَقَدْ غَرَسَتْ فيهِ الشَّغَفَ بِالكُتُبِ وحُبَّ المُطالَعَةِ.

عَمِلَ أَوَّلًا في بَلْدَةِ «دورْشِسْتر»، ثُمَّ انْتَقَلَ، في السَّنَةِ ١٨٦٢، إلى لَنْدن حَيْثُ الْتَحَقَ بِمَكْتَبِ أَحَدِ المُهَنْدِسينَ. وقَدْ أَفادَ مِنْ وُجودِهِ في العاصِمَةِ فَزادَ مِنْ مُطالَعاتِهِ، وشاهَدَ المَسْرَحِيّاتِ، وزارَ مَعارِضَ الفُنونِ، وبَدَأَ بِنَظْمِ الشِّعْرِ.

عادَ ثانِيَةً إلى «دورْسِت» حَيْثُ بَدَأَ تَأْليفَ الرِّواياتِ. لَمْ يَنْشُرْ هارْدي رِوايَتَهُ الأُولى «الفَقير والسَّيِّدَة النَّبيلَة» [The Poor Man and the Lady]، ولٰكِنَّهُ نالَ تَشْجيعَ أَصْدِقائِهِ، فَتابَعَ الكِتابَةَ، وَظَهَرَتْ لَهُ بِضْعُ رِواياتٍ. حَقَّقَ هارْدي أَوَّلَ نَجاحٍ شَعْبِيٍّ كَبيرٍ لَهُ، سَنَةَ ١٨٧٤، عِنْدَ نَشْرِ رِوايَتِهِ «بَعيدًا عَنْ صَخَبِ النّاس» [Far From the Madding Crowd]، وقَدْ تَزَوَّجَ في ذاكَ العامِ مِنْ إيما غيفورْد.

أَمْضَى السَّنَواتِ العَشْرَ التّالِيَةَ في رِحْلاتٍ داخِلَ بَريطانيا وخارِجَها، ثُمَّ اسْتَقَرَّ، قُرْبَ «دورْشِسْتر»، في مَنْزِلٍ صَمَّمَهُ بِنَفْسِهِ. وهُناكَ قامَ بِكِتابَةِ رِواياتِهِ الشَّهيرَةِ، ومِنْ بَيْنِها: «مُحافِظ كاسْتَرْبِرِدْج» [The Mayor of Casterbridge]، و«سُكّان الأَحْراج» [The Woodlanders]، و«تِسّ دوبرْفيل» [Tess of the Dubervilles]. وهٰذِهِ الرِّوايَةُ الأَخيرَةُ أثارَتْ ضَجَّةً كُبْرى لَدى نَشْرِها، فَقَدِ اعْتَبَرَ النُّقّادُ مَوْضوعَها فاضِحًا ومُثيرًا.

عامَ ١٨٩٦ ظَهَرَتْ رِوايَتُهُ التّالِيَةُ «يَهوذا الغامِض» [Jude the Obscure]، فَقابَلَها النُّقّادُ أَيْضًا بِعاصِفَةٍ مِنَ الإدانَةِ، فَقَرَّرَ هارْدي التَّوَقُّفَ عَنْ كِتابَةِ الرِّواياتِ، وكَرَّسَ بَقِيَّةَ حَياتِهِ لِنَظْمِ الشِّعْرِ، وجاءَتْ قَصائِدُهُ تُضاهي رِواياتِهِ جُودَةً ورَوْعَةً. وقَدْ تَتابَعَتْ شُهْرَةُ هارْدي في التَّنامي، بِالرَّغْمِ مِنَ الانْتِقاداتِ العَنيفَةِ لِمَوْضوعاتِ بَعْضِ رِواياتِهِ، وحازَ العَديدَ مِنَ الأَوْسِمَةِ والجَوائِزِ.

ماتَتْ زَوْجَتُهُ سَنَةَ ١٩١٢، ثُمَّ تَزَوَّجَ ثانِيَةً سَنَةَ ١٩١٤ مِنْ مُدَبِّرَةِ مَنْزِلِهِ وسكرتيرتِهِ فلورنْس دَغْديل.

تُوُفِّيَ هارْدي سَنَةَ ١٩٢٨ وهُوَ في السّابِعَةِ والثَّمانينَ.

كتب الفراشة - القصص العالميّة

١ - الدُّكتور جيكل ومِستر هايْد
٢ - أوليڤَر تْويسْت
٣ - نِداء البَراري
٤ - موبي دِك
٥ - البَحّار
٦ - المخْطوف
٧ - شَبَح باسْكِرْڤيل
٨ - قِصَّة مَدينَتين
٩ - مونْفليت
١٠ - الشَّباب
١١ - عَوْدة المُواطِن
١٢ - الفُنْدق الكبير
١٣ - حَولَ العالَم في ثمانينَ يَومًا
١٤ - رِحْلَة إلى قَلْب الأرض
١٥ - كُنوز الملِك سُلَيْمان
١٦ - سايْلس مارْنَر
١٧ - شيْرلي
١٨ - رِحلات چَلِڤَر
١٩ - بعيدًا عن صَخب النّاس
٢٠ - مُغامَرات هَكلبري فين
٢١ - ديڤيد كوپرفيلد
٢٢ - بْليك هاوُس
٢٣ - بْلاك بْيُوتي

كتب الفراشة

القِصَص العالميّة ١٩. بَعيدًا عَن صَخَب النّاس

كَيْفَ يُواجِه الشّابُ الطَّيِّب غبريال أُوك عَقَباتِ الحَياة؟ وهَلْ سَيُكافَأ على إخْلاصه في حُبِّه؟ ما سِرُّ شَخْصِيّة شِيبا المُتقلِّبة؟ وإلى أَيْنَ سَيَقودُها تَرَدُّدها؟ ماذا يُخبِّئ القَدَر لِلرَّجُل الشَّهْم بولْدُوود؟ ما هو مَصير الفَتاة المِسْكينة فاني روبِن؟ أَيْنَ اخْتَفَى الرَّقيب تْرُوي؟

هٰذا ما سَتَعرفه عندَما تَجِدُ نَفْسَك مَدْفوعًا لِتَقْرَأ بِشَغَف رِواية «بَعيدًا عَن صَخَب النّاس» لِلكاتِب الإنكليزيّ توماس هارْدي.

مَكتبة لبنان ناشِرُون

01C196814